الفنون

مجلة ادبية تصدر مرة في كل شهر

رئيس تحريرها — نسيب عريضه

مدير اعمالها — راغب متراج

قيمة الاشتراك = خمسة ريالات اميركية لسنة · وثلاثة ريالات عن نصف سنة · وريال ونصف عن ثلاثة أشهر · ونصف ريال عن شهر واحد · والدفع سلفاً ·

AL-FUNOON
72 TRINITY PLACE
NEW YORK

الجزء الثاني عشر   ايار   ١٩١٧

اشترك حالا في

السنة الثالثة من الفنون

التي تبتدىء في حزيران

ادارة تحرير الفنون تهيىء للسنة المقبلة مقالات وروايات وابحاثاً شائقة لم ينشر مثلها في عالم الادب العربي وكلها بقلم اشهر الكتاب والشعراء الطائري الصيت في الشرق والغرب · هذا عدا الرسوم الفنية الكثيرة المعاني التي تنتقيها من بين صور اشهر رسامي العالم

الان

ارسل اسمك على الفور لئلا تفوتك الاجزاء الاولى كما حدث لكثيرين من المشتركين في هذه السنة · او اذا لم تشأ الاشتراك دون ان ترى بعينيك فاطلب الجزء الاول من السنة الثالثة يصلك مجاناً كانموذج · فتقرأه انت واصدقاءك وتبقيه عندك تذكاراً اذا لم تشأ الاشتراك الان

نقلت ادارة الفنون مركزها الى العنوان الآتي · فلتعنون المراسلات بموجبه

« عنوان الفنون الجديد »

AL-FUNOON
72 TRINITY PLACE
NEW YORK

بهذا الجزء نختتم السنة الثانية من « الفنون » · وبه تقطع هذه المجلة المرحلة الثانية من طريق حياة داست فيها كثيراً من الصعوبات ، وقاست ما يقاسيه كل مشروع جديد ناهض من اضطهاد الفئة المعارضة

ليست الفنون لترفع رأسها في هذا الموقف كسواها من الصحف وتنظر الى ماضيها مباهية معجبة داعية الناس الى روءية ما صنعته يداها مفتخرة بمآتيها معددة مآثرها بل هي تعرض عن الماضي وتطمح ببصرها الى المستقبل مهيئة خطط الوصول الى غايتها ، عالمة بما يعترضها من العقبات ، صابرة عَلَى ما تحتمله من الاضطهاد ، شاكرة ما تناله من التشجيع من انصارها في المبدأ عازمة عَلَى تحسين خطتها وتحاشي كل نقص او خطأ صدر منها في الماضي

قد صنعت الفنون في ما مضى كل ما في وسعها لخدمة مبدأها ولارضاء المشتركين · وهي تفتخر بانها حازت رضاهم واعجابهم ولكنها لا تكتفي بذلك وتقف عند هذا الحد بل تسعى في زيادة التحسين لتنال منتهى امنيتها · فانها فرضت عَلَى ذاتها خطة التقدم منذ نشأتها وليست لتوءمن بالوقوف عند حد وراءه متسع ·

فعلى القراء ان يقوموا بما عليهم من الواجب لها وهي تقوم باكثر مما عليها من الواجبات :

. . . . . .

اضطرت ادارة التحرير ان تنشر في هذا الجزء كل تتمة رواية زنبقة الغور لتنتهي منها في هذه السنة · فشغلت الرواية معظم الجزء واقتضى الامر حذف كثير من مواده وتأجيل بعضها الى الاجزاء المقبلة · فليعذرنا القراء فللضرورة أحكام ·

. . . . . .

في آخر هذا الجزء فهرسان مستقلان للسنة الثانية من الفنون · الاول منهما للمجلد الاول المؤلف من الاجزاء الستة الاولى · والثاني للمجلد الثاني الذي يحتوي عَلَى بقية الاجزاء وقد اضطررنا الى قسم السنة الى مجلدين ليمكن تجليد اجزائها الضخمة تجليداً مناسباً بعد ان رأينا انه من المستحيل جمع اجزائها كلها في مجلد واحد سهل التناول والتقليب

. . . . . .

حازت الاكثرية في التصويت الشهري لعدد اذار « رواية الآباء والبنون » لميخائيل نعيمه وحازت الاكثرية في الشعر « أخي » لميخائيل نعيمه ·

. . . . . .

ادارة الفنون بحاجة الى اجزاء السنة الثانية كلها ما عدا الجزئين الاخيرين منها · فمن كان بغنى عنها فليتكرَّم بارسالها الى الادارة فتدفع له الثمن نقداً او مقايضة ·



الأمل — للمصور واتس

يا صاحبي

لجبران خليل جبران

* * * * *

يا صاحبي — انا لست كما اظهر لديك ، وما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى ألتف به ليدرأ عني تطفلك ويحميك من اهمالي ٠ اما الذات الخفية التي ادعوها « انا » فهي سر عميق غامض مستتر وراء جدران السكون وسيبقى غامضاً مستتراً معتصماً الى الابد

يا صاحبي — اود ان لا تصدق ما اقول وان لا تثق بما افعل لان كلماتي ليست سوى صدى افكارك وما آتي ليست سوى رسوم آمالك

يا صاحبي — لما تقول لي « الريح تهب شرقاً » اجيبك بقولي « اي » فهي تهب شرقاً » لانني لا اريدك ان تعلم ان افكاري لا تسبح مع الريح بل تهبط وتتصاعد مع امواج البحر ٠ وانت قاصر بطبيعة افكارك المستسلمة الى الارياح عن ادراك طبيعة افكاري المرفرفة فوق البحار ، وانا لا استطيع ان أبين لك كنه تلك الافكار ، ولو

استطعت لما فعلت لانني او ثر ان اسبح في البحر وحدي

يا صاحبي — لما تكون في ظهيرة نهارك اكون في منتصف ليلي، ومع ذلك فانا احدثك من وراء حجاب الدجى عن الشمس في الطفل وعن اشعتها الذهبية الراقصة فوق قمم الجبال وعن الظل الطويل الذي يسترق خطواته في الاودية الخضراء · احدثك عن هذه الامور لانك لا تستطيع ان تسمع ألحان ظلمتي ولا تقدر ان ترى خفقان جناحيَّ بين الكواكب · وانا لا اريدك ان تسمع او ان ترى لانني اوثر ان ابقى مع الليل وحدي ·

يا صاحبي — لما تصعد انت الى جنتك انحدر انا الى جحيمي · وحتى في جحيمي اسمعك تناديني من وراء الهاوية الهائلة التي تفصلنا قائلاً « يا صاحبي — يا رفيقي » فاجيبك هاتفاً « يا رفيقي — يا صاحبي » لاني اضن بجحيمي من ان يقع عليه بصرك واخشى من لهيبه ان يلتهم النور في عينيك ومن دخانه ان يسد منخريك · اما انا فمولع بجحيمي واوثر ان تبقى بعيداً عنه لاني اريد ان اكون في الجحيم وحدي ·

يا صاحبي — انت تعشق الحق والجمال والفضيلة · وانا لاجلك اقول انه يليق بالانسان ان يحب هذه الاشياء · ولكنني اضحك في قلبي من حبك — واستر عنك ضحكي لاني افضل ان اضحك وحدي

يا صاحبي — انت صدّيق وحكيم ومترو ، لا بل انت كامل ؛ وانا احاول

ان اخاطبك بحكمة وترو · غير انني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه انت الى عالم غريب وبعيد · لكنني استر عنك جنوني لانني افضل ان اكون مجنوناً وحدي

يا صاحبي — انت لست صاحبي فكيف اجعلك ان تدرك ذلك ؟ طريقك ليست طريقي ولكننا نسير معاً يداً بيد ·

جبران خليل جبران





في الليل

لامين مشرق

*****

بعدما تسرع ساعات الضجر   ذاهبات بنهاري الكمدِ
اتسلى فيك يا ليل السمر   انت سلوى البائس المنفردِ

*****

انا يا ليل غريب مبهمُ   وكذا انت بهيم وغريب
وعجيب في الحشا ما اكتمُ   والذي تكتمه انت عجيب
وكلانا قد براه السقمُ   وكلانا ليس يأسوه طبيب
قد تماثلنا شقاءً وكدر   وتشابهنا بصمتٍ ابدي
ربَّ صمتٍ ضم معنىً وخبر   لذكاء العاقل المتقدِ

*****

اسرعت رجل الاسى تدنو اليَّ   فسعت من خوفها نفسي اليك
وطما يومي باحزاني عليَّ   فهمى قلبي باشجاني عليك

ادمعاً اسكبهـا من مقلتيَّ   علَّ فيها راحتي ، في راحتيك
ولو اني اسطعت دمعي ما انتثر   واصطباري قدة من جلمدِ
ولو اني اسطعت سري ما ظهر   بعدما كتمته في كبدي

*****

خلت قلبي ناسياً عهد الهوى   وظننت الوجد من صدري ذهب
فتشامخت عَلَى اهل الجوى   وتضاحكت افتخاراً وطرب
ولنفسي قلت — ان مال السوى   للتصابي فلكِ المجد طلب
فاذا بي نسمة عند السحر   سرحت مثل لهاث الولدِ
هفَّ قلبي للقاهـا وطفر   طائشاً من وجده لا يهتدي

*****

آه احلام الصبا كم حملت   بجناحيها نفوس العاشقين
آه اوهام الصبا كم حولت   عن طريق المجد مجرى السالكين
آه اشواق الصبا كم قتلت   بجواها من بناتٍ وبنين
مات عيشي قبل موتي واندثر   بين عينين وشعرٍ اسودِ
ونهودٍ في قدودٍ كالثمر   وخدودٍ فوقها الورد الندي

*****

مصَّت الاشواق روحي مثلما   مصت الريح عبير النرجسِ
وانا بالذكر احيا أملاً   شادياً فيما بقي من نفسي
« جادك الغيث اذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالاندلسِ »

يا ليالي الحب في ضوء القمر | يا مجالي انسيَ المبتعد
ذهبت لم يبقَ لي الا صوَر | تتراءى بعدها في خلدي

*****

في دمي للحب شوق وحنين | وبنفسي للمعالي نزعات
فهو لا يترك لي الا الانين | وهي لا تورث غير الحسرات
ايها الليل : أذا حظ الحزين ؟ | ايها الليل ، أذا سرُّ الحياة ؟
بين آلامٍ ووجد وخطر | نتمنى اننا لم نولدِ !
راح امسي بشبابي ونفر | يا ترى ماذا الاقي في غدي

« امين مشرق »



سردانابال

(انظر الصورة التاريخية في هذا الجزء)

ذكر المؤرخ كتيزياس اليوناني اموراً غريبة في ما دوَّنه من التاريخ أيام كان طبيباً في بلاط أحد ملوك قادي عَلَى اثر انتقال السلطة الى تلك البلاد الفارسية عقيب سقوط بابل وأشور · وفي مروياته أساطير أقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة ولا سيما في ما كتبه عن ملوك بابل وأشور · وذلك لان ما كتبه عنها لم يكن كتابة معاصر رأى الامور بعينه او سمعها من مصدر ثقة فدوَّنها بتحفظ ، بل كتابة متأخر عاش بعد أجيال فدوَّن ما دوَّنه مستنداً عَلَى ما سمعه من المرويات الواهية والاقاصيص المنتشرة التي يزخرفها الناقل ويوسع نطاقها قبل ان يسلمها الى خلفه · فلهذا نرى ان كثيراً من مشاهير الملوك الذين أورد كتيزياس ذكرهم كانوا من اشخاص الخرافة لا من ابطال التاريخ · من هذا القبيل سميراميس التي ذكرنا شيئاً عنها في الجزء الثاني وسردانابال الذي نحن بصدده الان

وهاك قصة سردانابال ملخصة عن كتيزياس

كان سردانابال الاخير بين ملوك اشور وبه ختمت دولتهم وانقضى امرهم · وعَلَى ايامه سقطت نينوى في يد العدو فدكها وتركها قاعاً صفصفاً حتى لم يبقَ للمدينة أثر · وكان سردانابال كل مدة ملكه منقطعاً الى اللهو

منعكفاً عَلَى اللذات والقصف داخل قصره لا يثنيه عن ذلك همٌّ ولا رغبة حتى رُوي عنه انه كان يرتدي بملابس نسآء قصره ويقضي الوقت مع جواريه بالسكر والطرب · عَلَى انه لما هاجم العدو المدينة طرح عنه تخنثه ونفض غبار لهوه ونهض يذب عن مملكته فدافع مع جيشه دفاع الابطال · ولما اخترق الاعداء اسوار عاصمته ورأى ان لا مناص له من الوقوع في ايديهم بنى لنفسه محرقة عالية داخل قصره جمع اليها كنوزه ونساءه وجواريه وجلس عَلَى سدتها العالية وأمر باشعالها فاحترق ومن معه ·

اما التاريخ المثبت فلا يقول شيئاً عن سردانابال البتة · بيد أن في عداد ملوك اشور ملكين يشابه اسمهما اسم سردانابال وهما اشوردنيبال واشوربانيبال وهنا مجال للنظر · فقد يكون المؤرخ اليوناني مسخ اسم احدهما ونسب اليه ما نسبه · أو لا يستغرب ان يكون قد جمع بين الاثنين وخلط تاريخهما ودوَّن منه قصة سردانابال · فان اشوردنيبال حاصره اخوه في احدى المدن فانتحر أو قتل في الحصار · واشوربانيبال كان ملكاً في عصر سقوط نينوى وكان مخلداً الى السكينة والسلم لا يحب الحرب ·

ولكن نفى البحث والتنقيب من مظان التاريخ ما كان يعد بمثابة الحقائق · ومن القريب ان تكون سميراميس التي يُعزى اليها بناء نينوى ونشر سلطة اشور وسردانابال الذي يُنسب اليه سقوطها شخصين وهميين عَلَى ما في قصتهما من المجد والغرابة والزخرفة ·



انتحار سردانابال — للمصور لويس شالون

الصديق

لابن المقفع

* * * * *

(عبدالله بن المقفع الكاتب الشهير الفارسي الاصل معرب كليلة ودمنة المتوفي سنة ٧٧٤ م · اخترنا له هذه القطعة لما فيها من البلاغة والفائدة ولجدارتها بالنشر والحفظ)

كان لي أخ أعظم الناس في عيني · وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه · وكان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر اذا وجد · وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا تدعوه اليه موءونة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً · وكان لا يتأثر عند نعمة ولا يستكين عند مصيبة · وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم ابداً الا على ثقة بمنفعة · وكان أكثر دهره صامتاً ، فاذا قال بز القائلين · وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فاذا وجد الجد فهو الليث عادياً · وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً · وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره · وكان لا يشكو وجعه الا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً الا ان يرجو منه

النصيحة · وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ، ولا يتشكى ، ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه بشيء دون اخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته ·

فعليك بهذه الاخلاق ان اطقتها ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع ·



اشرف وافضل لقب هو كلمة « رجل » ولكن من يستحقونه قلائل

الفضيلة جميلة ولو في الحلم

اللسان الذرب هبة · واللسان الطويل عقاب

الصلاح لا يعرف الخوف

الخواتم الثلاث

﴿ لاحد كتاب الافرنج في الجيل الرابع عشر ﴾

* * * * *

احتاج السلطان ذات يوم الى مقدار كبير من المال ينفقه في حروبه · فاشار عليه وزراوءه ان يستدعي يهودياً معروفاً بالغنى بين رعاياه ويلقي عليه تهمة باطلة ليتمكن بذلك من الحجز عَلَى مقتنياته حسب القانون · فدعا السلطان ذلك الرجل اليه وطرح عليه هذا السوءال

— أي الاديان افضل ?

سأله السلطان هذا السوءال وقد أضمر له الشر · فاذا اجاب اليهودي ان المسيحية أو اليهودية افضل يُتهمه عَلَى الفور بتحقير الاسلام ويلقيه في السجن · واذا قال ان الاسلام هي الديانة الفضلى يقول له السلطان — قد كذب هذا الخبيث وكفر · فلو كان يعتقد بافضلية الاسلام لاعتنقه ديناً ونبذ اليهودية · اطرحوه في اعماق السجون تأديباً له وعبرة لامثاله

عَلَى أن اليهودي لما سمع الاسئلة الثلاثة تلقى عليه عرف مضمونها وأجاب

— مولاي ، كان لاحد الرجال ابناء ثلاثة · وكان له خاتم نفيس مرصع بحجر كريم ثمين ليس له مثيل عَلَى وجه البسيطة · وكان كل واحد

من ابنائه يطمع في الخاتم ويرغب اليه ان يوصي به له دون اخوته · فلما رأى الاب ان كلاًّ منهم يرغب الاستئثار بالخاتم دعا اليه صائغاً ماهراً واوصاه ان يصنع له خاتمين مثل خاتمه ويرصعهما بحجرين يشبهان الحجر الاصلي · فصنع له الصائغ ما اراد بدقة واتقان · فاصبح للرجل ثلاثة خواتم متشابهة لا يدري غيره ايها الحقيقي النفيس · فدعا اولاده واحداً بعد واحد وسلم كلاًّ خاتماً عَلَى حدة فظن كل واحد منهم انه ظفر بالتحفة الحقيقية ولم يعلم الحقيقة الا الاب · والديانات التي تسألني عنها يا مولاي كهذه الخواتم لا يعلم ايها الافضل الا ابونا الذي في السماوات · اما نحن ابناوه عَلَى الارض فيظن كلٌّ منا ان ديانته هي الفضلى

فلما سمع السلطان جواب اليهودي لم يرَ له سبيلاً الى ادانته · وسرَّ من ذكائه وانعم عليه واطلق سراحه ·



الى الامام

✵ لنعمه الحاج ✵

* * * * *

الصبح اعلن قربه   والديك سبح ربه
فيه اقتدوا وتشبهوا   يا نائمون تنبهوا
والى الامام الى الامام
كم تغفلون عن العدى   كم تمسكون عن الندى
كم ترهبون من الردى   فالى السيوف الى المدى
والى الامام الى الامام
لا تهربوا او ترهبوا   ما من منونٍ مهرب
الموت لا يُتجنب   فعلى القتال تدربوا
والى الامام الى الامام
هبوا لانقاذ الوطن   مما دهاه من المحن
أرجال هاتيك الدمن   انلم تعينوهُ فمن
فالى الامام الى الامام
والى الصفوف وقوموا   أرماحكم وتقدموا
واذا التظت وجرى الدم   وغدا الرصاص يدمدم

فالى الامام الى الامام

ان العلى منذ القدم آياتها كتبت بدم

والمجد في حد الخذم فتفيأوا ظل العلم

والى الامام الى الامام

أرجال سوريا ألا من نهضةٍ نحو العلى

قتل الاعادي قد حلا فارعوا لسوريا الولا

والى الامام الى الامام

ظفر العدو بزادكم وجنى عَلَى اولادكم

لكن بصدق جهادكم يأتي خلاص بلادكم

فالى الامام الى الامام

سيروا لادراك المنى ودعوا الجبانة والونى

فالموت في ظل القنا تحت الظبى شرف لنا

فالى الامام الى الامام

« نعمه حاج »



المطرقة والسلسلة

لثيودور سولوغوب

* * * * *

مطرقة متينة ، مصنوعة من أفضل الحديد ، مفعمٌ قلبها بالنوايا الحسنة ، تحادثت وقطعةٌ بسيطة من الحديد ملقية عَلَى السندان · وكان حديثهما عن نقائص الارض وشرورها والاضرار التي يسببها المخلوقات بعضهم لبعض فقالت المطرقة مما قالته

— « اعلمي يا هذه ان السلاسل والقيود من بقايا الهمجية » · ثم اخذت تعظ قطعة الحديد وتقنعها ألاَّ تقبل البتة بأن تصير يوماً سلسلة

وبينا كانت قطعة الحديد تصغي الى عظة المطرقة لانت وذابت من حرارة نار الاتون فاتى الحداد القوي العضلات ورفع المطرقة الى فوق رأسه وانهال بضربات شديدة تصدع الصخر عَلَى قطعة الحديد فتطاير منها الشرر الاحمر وتقطع صدرها بالانّات · فقالت تعاتب المطرقة

— « حنانيك ! أما انت وعظتني الساعة ؟ فكيف أخذت تضربيني ! »

— « أجل · انا أضربك وما عليك الا بالصبر · بذا حكم القضاء · وقد جُعلت في الارض ارفع منك درجة لاتمكن من ضربك »

ثم أخذت تسقط عليها تباعاً سقطات ثقيلة شديدة وهي تردد هذه الكلمات بلهجة خطيرة

— « لتسقط القسوة ! وليمت القساة الحقيرون ! »

ولما أخذت قطعة الحديد تخرج من بين يدي الحداد سلسلة طويلة متينة الحلقات أعرضت المطرقة عنها وقالت بلهجة الاحتقار

ـ « كذا شأن كل خونة المبادىء والمتقلبين · تراهم في بدئهم كالشمع ليانة · ولكنهم في الاخير تبلغ بهم الوقاحة مبلغاً فيسخرون انفسهم للعنف والظلم ويصبحون قيوداً تثقل ارجل الاحرار »

اما السلسلة فصدر عن حلقاتها المتينة أنين خفيف · وقالت بصوت كالهمس

ـ « بذا حكم القضاء · وذي سنّة الخلق · لم يبقَ عليّ سوى ان أحتمل ضربة أو ضربتين من يد الحداد ثم أشفي غليلي بان التف كالافعى حول جسم السجين اللعين واذيقه العذاب ألواناً ·»



طرائف عربية

*****

ظهر الطاعون بدمشق ايام خلافة عبد الملك بن مروان فخرج عبد الملك هارباً منه ومعه غلام له فكان يغلبه النوم وهو سائر والفرس تعدل به عن الجادة . فقال لغلامه

— ويلك حدثني بما تحدث به امثالك

فقال الغلام

— بلغني أن ثعلباً صادق اسداً عَلَى ان يجيره من السباع فكان ابداً بين يديه . فظهر في يوم من الايام عقاب في الهواء فخافه الثعلب ووثب عَلَى ظهر الاسد . فانحط عليه العقاب فاختطفه . فقال الثعلب — العهد يا ابا الحارث . فقال له الاسد — انما عاهدتك عَلَى ان احفظك من اهل الارض واما اهل السماء فلا قدرة لي عليهم .

فقال عبد الملك — لقد وعظتني يا غلام .

ورجع الى الشام وهو يقول — لا عاصم اليوم من أمر الله

. . . . .



العودة من الملحمة — للمصور بلشون

جلس نحوي الى جانب واعظ · فلحن الواعظ · فقال له النحوي — اخطأت ولحنت ·

فقال له الواعظ عَلَى البديهة

— ايها المعرب في اقواله ، اللاحن في افعاله ، لاجل ضمة رفعت ، وفتحة نصبت ، وجرَّة خفضت ، وجزمة جزمت · هلاً رفعت يدك الى الله في جميع الحاجات ، ونصبت بين عينيك ذكر المهات ، وخفضت نفسك من اتباع الشهوات ، وجزمتها عَلَى ترك المحرمات ! أما علمت انه لا يقال لك يوم الدين — لِم لا كنت فصيحاً معرباً ؟ بل يقال لك — لِم كنت عاصياً مذنباً · ولو كان الامر كما ذكرت لكان هارون أحق بالخلافة من موسى لانه كان افصح منه لساناً · ولكن الله جعل الرسالة في موسى لثبات جنانه لا لفصاحة لسانه ·

· · · · ·

لما سئم قيس بن زهير الحروب التي اثارها سباق داحس ترك قومه وخرج عَلَى وجهه حتى لحق بقبيلة النمر بن قاسط فقال — يا معاشر النمر أنا قيس بن زهير غريب حرب فانظروا لي امرأة قد أدبها الغنى وأذلها الفقر · فزوجوه امرأة منهم توافق ما طلب · ثم قال — اني لا اقيم فيكم حتى اخبركم باخلاقي اني امروء غيور ، فخور ، أنف · ولست أفخر حتى أبتلى ، ولا اغار حتى أرى ، ولا آنف حتى أُظلم · فرضوا باخلاقه فاقام فيهم زمناً · ثم اراد التحول عنهم فقال يودعهم — يا معشر النمر اني ارى لكم عليَّ حقاً بمصاهرتي لكم

ومقامي بين أظهركم · واني آمركم بخصال وأنهاكم عن خصال — عليكم بالأناة فيها تدرك الحاجة ، وتسويد من لا تعابون لتسويده ، والوفاء فيه تتعايشون ، واعطاء من تريدون اعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الالحاح ، وخلط العنيف بالالزام · واياكم والرهان فيه ثكلت مالكاً أخي ، والبغي فانه صرع زهيراً ابي وحملاً بن بدر ، والسرف في الدماء فان قتل اهل المباءة اورثني العار · ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق · ثم رحل عنهم · وخرج وصاحب له من بني أسد عليهما المسوح يسيحان في الارض ويتقوتان مما تنبت الى ان دُفعا في ليلة باردة الى اخبية لقوم من العرب وقد اشتد بهما الجوع · فوجدا رائحة القتار فسعيا يريدانه · فلما قاربا ادركت قيساً شهامة النفس والانفة فرجع وقال لصاحبه — دونك وما تريد فان لي لبثاً عَلَى هذه الاجارع اترقب داهية القرون الماضية · فمضى صاحبه ورجع من الغد فوجده قد لجأ الى شجرة باسفل واد فنال من ورقها شيئاً ثم مات ·

· · · · ·

لما استسلم الخليفة الوليد بن يزيد الاموي الى لهوه وقصفه وأهمل تدبير الملك وعكف عَلَى منادمة القيان والمغنين همَّ قومه بخلعه فقال

خذوا ملككم · لاثبت الله ملككم ثباتاً يساوي ما حييت عقالا
دعوا لي سلمى مع طلاء وقينة وكأسٍ ألا حسبي بذلك مالا
أبا لملك أرجو ان أخلد فيكم ؟ ألا رب ملك قد أزيل فزالا

ألا ربّ دار قد تحمل اهلهـا   فاضحت قفـاراً والديار خلالا

ولم يلبث بعد ذلك طويلاً حتى قُتل

. . . . .

رأى الشاعر ابو نواس رجلاً سكران فصـار يعجب منه ويضحك . فقيل له

— ما يضحكك وانت كل يوم مثله ؟

قال — ما رأيت السكران قط .

فقيل له — وكيف ذلك ؟

فقال — لاني أسكر قبل الناس ولا افيق ألا بعدهم . فلا اعلم حال السكارى بعدي

. . . . .

شكا رجل الى الاحنف وجع ضرسه فقال له — لقد أذهب الله نور عيني منذ ثلاثين سنة فما علم أحد بذلك

. . . . .

كان عبدالله بن عمر يزور المقابر ولا يجالس الناس . وكان لا يُرى الا وفي يده كتاب يقروءه . فسئل عن ذلك فقال -- لم أرَ واعظاً أوعظ من قبر ، ولا ممتعاً أمتع من كتاب ، ولا شيء اسلم من الوحدة

. . . . .

قيل لرجل من العرب — مات عدوك

فقال -- وددت لو قلتم انه تزوج

. . . . .

لقي الحجاج اعرابياً . فقال له

— ما بيدك ؟ فقال

— عصاي اركزها لصلاتي ، واعدها لعداتي ، واسوق بها دابتي ، واقوى بها عَلَى سفري لحاجتي ، واعتمد عليها في مشيتي ، لتتسع خطوتي ، وأثب بها النهر ، وتوءمني العثر ، وألقي عليها كسائي فيقيني الحر ، ويدفئني من القر ، والي تدني ما بعد عني ، وهي محمل سفرتي ، وعلاقة أداتي ، اقرع بهـا الباب ، واطرد بها الكلاب ، وتنوب عن الرمح في الطعان ، وعن السيف في منازلة الاقران ، ورثتها عن ابي وهو ورثها عن جدي وسأورثها لولدي من بعدي ، واهش بها عَلَى غنمي ، ولي فيها مآرب اخرى .

. . . . .

قال الوليد بن يزيد لابن شراعة

— أي المجالس أحب اليك يكون شربنا فيه اليوم ؟ فقال — هل يشرب الا عَلَى وجه السماء . فوالله ما نادم الناس أصبح من وجهها

. . . . .

بعث الخليفة الى الخليل بن أحمد بالف دينار مع رسول وسأله ان يتجهز بها ويوافيه · فوجده الرسول جالساً يبل خبزاً يابساً في ماء حتى اذا انتقع اكله · فدفع الرسول اليه المال وبلغه الرسالة · فردّ الخليل الالف دينار وقال للرسول

— ما دمت أجد هذين فلا حاجة لي الى الخليفة

. . . . .

نظر بعض الناس الى العتابي وهو يأكل في السوق فقال له — أما تستحي ان تأكل في السوق والناس تراك ؟ فقال له العتابي

أرأيت لو كنت في دار فيها بقر أكنت تستحي بأن تأكل وهي تراك ؟

فقال — لا

فقال له العتابي — اصبر عليّ قليلاً لاريك صدق ما قلته ·

فصعد الى دكة حانوت ووعظ فاجتمع عليه الناس فلما رأى كثرة اجتماعهم قال

— ايها الناس قد روينا انه من بلغ لسانه الى رأس انفه لم يدخل النار

فلم يبقَ أحد من القوم الا وأخرج لسانه الى رأس انفه ليرى هل يبلغ اليه ام لا · فلما تفرقوا عنه قال للرجل — ألم اخبرك انهم بقر

. . . . .

كانت امرأة من العرب تأتي بصبية لها كل يوم قبل الصبح فتقف بهم على تل عالٍ وتقول — اي بنيّ ، خذوا صفو هذا النسيم قبل ان تكدره الخلائق بانفاسها ·

. . . . .

قيل لابي مسلم الخراساني — بمَ وصلت الى ما وصلت ؟ فقال — ارتديت بالصبر وائتزرت بالكتمان · ولم اجعل الصديق عدواً ، ولا العدو صديقاً ·

. . . . .

خرج رجل في بعض الحروب ومعه قوس بغير نشاب · فقيل له — اين النشاب ؟

فقال — مع العدو · وهو يجيئنا ·

فقالوا — وما تفعل ان لم يجيء ؟

فقال — ان لم يجيء لم تكن الحرب

. . . . .

حدّث محمد بن ابراهيم الموصلي قال

— اجتزنا في بعض اسفارنا بحيٍ من العرب فاذا رجل منهم قبيح الوجه في الغاية أحول ذو لحية طويلة بيضاء يضرب زوجة له وهي جارية حسناء كاعب كأنها البدر فقمنا اليه نمنعه عن ضربها · فقالت — دعوه انه اسدى الله حسنة ، واذنبت انا ذنباً ، فجعلني الله ثوابه ، وجعله عقابي

قال المأمون لبعض جلسائه — انشدني بيتاً لملك يدل عَلَى ان قائله ملك.

فانشد بعضهم قول امرىء القيس

أمن أجل اعرابيةٍ حلّ اهلها   جنوب الحمى عيناك تبتدران ؟

فقال ليس في هذا ما يدل عَلَى انه ملك · فانه يجوز ان يقول هذا سوقي أو حضري فكأنه يوءنب نفسه عَلَى التعلق بأعرابية

ثم لما عجز القوم عن الاتيان بالبيت المطلوب قال المأمون

— ان الشعر الذي يدل عَلَى ان قائله ملك هو قول الوليد بن يزيد

اسقني من سلاف ريقة سلمى   واسقِ هذا النديم كاساً عقارا

أما ترون اشارته وقوله « هذا النديم » فانها اشارة ملك ·

· · · · ·

قيل للمتنبي بعد ان تاب

— عَلَى من تنبأت ؟ فقال

— عَلَى السفلة · فقيل له

— ان لكل نبي معجزة فما معجزتك ؟ فقال

— قولي

ومن نكد الدنيا عَلَى الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بد

· · · · ·

الناس عادة يذكرون اعداءهم وينسون اصدقاءهم

قيل لاياس بن معاوية المشهور بالفراسة والاجوبة البديعة — ان فيك عيوباً هي دمامة شكلك واعجابك بما تقول وعجلة بالحكم · فقال — اما الدمامة فليس امرها اليّ بل الى من خلقني · واما الاعجاب بالقول أفليس يعجبكم ما اقول ؟ فقالوا — نعم

قال — فانا أحق بالاعجاب بقولي · واما العجلة بالحكم فكم هذه ومدّ أصابع يده ·

فقالوا — خمس ·

فقال — أعجلتم بالجواب ولم تعدوها اصبعاً اصبعاً ·

فقالوا — كيف نعد ما نعلمه ·

فقال — وانا كيف اوءخر حكم ما اعلمه

· · · · ·

قال بعض ظرفاء العرب — عجبت لمن يشرب الراح ويتنقل بالتفاح وينادم الملاح كيف يموت



بعض السعداء

(لبيتر التنبرغ)

* * * * *

اسعد من عَلَى وجه البسيطة غرانيق من الطير ترتع في بحيرة الحديقة العمومية وتعيش عَلَى شواطئها المغطاة بالقصب وتسرح لوحدها في البحيرة الواسعة وتتمتع بنعم التمدن كلها وبحماية البشر وكرمهم وبحرية خصوصية لا تُمنح لاحد سواها · يجيئها قوتها من مال المدينة في الشتآء وفي الخريف تطير فوق البحيرة مرفرفة خافقة باجنحتها عَلَى نغم موسيقي · والناس يحافظون عليها وعَلَى مآويها ويعتنون بافراخها كل الاعتناء ·

كيف لا وهم يعدونها زينة ذلك المشهد الطبيعي · هنيئاً لها ! فانها حازت حب الجميع واعجابهم مع انها لم تصنع حسناً ولم تنل ذلك بخدماتها الجليلة وافعالها الصالحة · لا أحد يطاردها ولا من يقتلها ويستعمل لحمها

للاكل مشوياً · والناس يعللون ذلك تعاليل شتى ويعتذرون بقولهم ان لحمها قاسٍ لا يصلح للاكل ابداً ··· ولاجل جمال ذلك المشهد الذي تقوم هذه الفرانيق بخدمته دون علم منها أو قصد أو استحقاق يمتنع الناس عن اذاها حتى عن اخذ ريشها ·

هذه الطيور المائية هي حبيبة الجمهور · ريشها يطفو عَلَى مرآة سطح البحيرة كندائف الثلج وليس من يلتقطه ويستعمله · ولم يقتل منها غير واحد فقط كان يتخطر في البحيرة وانثاه وصغاره فصدمت مجاذيف احد قوارب النزهة انثاه وفراخه دون قصد فهجم عَلَى القارب الصغير هجوم يائس هائل خافقاً بجناحيه فارتاعت الغادات الجالسات في القارب وهلعت قلوبهن خشية فاضطرّ الدليل ان يرميه بالرصاص فهلك لساعته في تلك الدقيقة—دقيقة احتدامه الناتج عن حبه واندفاعه ليذود عن اعز شيء لديه · ومات موتة بطل شريفاً محسوداً في حالة ذهول لا يشعر من يكون فيه بالم جسدي البتة

· · · · ·

ومن الذين أغدقت السعادة عليهم نعمها حصان قوي جميل أصيل يدعى « علي بابا » يخص احدى شركات توليد الخيل · فالناس يرفهون هذا الحصان ويعتنون به ويحافظون عَلَى قواه الحيوية لتبقى محفوظة لافراسه النجائب من حوله عَلَى وجه البسيطة يعذبون الوفاً من الحيوانات ويهينونها لغير ما سبب · ولاغراض شتى يذبحون هذه ويبترون اعضاء تلك ويعلفون هاتيك جبراً ويطعمونها فوق طاقتها لتسمن وتصبح صالحة للذبح ما عدا ذلك

الحصان الاصيل الاشهب وحده · هنيئاً له ! انه يتمتع باللطف والملاينة والاعتناء والرفاهية عَلَى انواعها · واذا شاخ فلا يعدم علفاً غزيراً يُقدم له مجانا مكافاة عَلَى اتعابه السابقةوخدمة الجليلة التيلم تكن سوى من الملذات عنده

. . . . .

وقد كان في ما مضى رجل سعيد هو بيتهوڤن الموسيقي · كان هذا أصم لا يستطيع سماع دناءات معاصريه الاقربين ورذائلهم فلم يكن يصغي الا الى انغام ترن دون انقطاع في داخله · وكان يقضي ساعات برمتها يصطاد السمك بالصنارة فياحدى جزر الدانيوب مشغوفاً بصيده فاذا اصطاد سمكة لا توء كل بعد انتظار ساعات عديدة يغتبط غبطة السعداء

وكان الناس يحسبونه شاعراً خولط في عقله · عَلَى انهم كانوا يحنون له الروءوس باحترام عميق · ولم يكن أحد يعيقه أو يحول دون عمله شيئاً· فكان يصب شكاويه من الارض كلها في ألحانه العميقة الهادئة ويبتسم ابتسامة حزن في انغامه الساحرة ساخراً من نفسه ومن الناس أجمع · وكان يحس في نفسه انه جالب المواهب ومفرقها ومنميها ومكثرها · ومع ذلك لم يكن يدرك هذا الامر حق الادراك بل كان يذهب الى الدانيوب ليصطاد سمكاً

. . . . .

ومما يجب اضافته الى المخلوقات السعيدة نوع غريب من الكلاب التي يطلقها ارباب المواشي من المتمولين في انكلترا عَلَى كلاب الماء التي تكون في السواقي أو في اوكارها أو في المغاور الحجرية الضيقة عَلَى شواطىء الانهر·

هذه الكلاب مصابة بمرض عضال هو بغض كلاب الماء بغضاً مبرحاً متأصلاً غريزياً حتى انها لتستهزأ بالموت بين انياب اعدائها الحادة · وهي تكره كلاب الماء ذلك الكره دون سابق عداوة او سبب · ويا لها من سعادة تتأجج في عروقها عندما يطلقونها عَلَى كلاب الماء · واذا تغلب عليها كلب الماء فانها تحسب الموت من انيابه الحادة لذة لا تصوّر · ولماذا القوة المعطاة لها ان لم تكن لاطفاء بغضها نحو اعدائها ?

ولهذا تعد هذه الكلاب الصيادة من السعداء لانها لا تعرف سوى البغض والفتك وهوى نفسها · واذا تملص كلب الماء منها تحزن كل الحزن وترنو الكآبة من عيونها فيشبه وميض تلك النظرات رنات انغام بيتهوڤن الهادئة · وتبقى اليل والنهار تفكر في اهلاك كلب الماء ·

ولهذه الكلاب السعيدة أجسام عظيمة وشعر كثيف خشن واعين كئيبة عابسة حادة تبرق فيها اشعة مهنتها القاسية الغريبة الخالية من الشفقة القائل لسان حالها — الموت لكلاب الماء ·

أجل ، هنيئاً لهذه الطائفة من الكلاب فانها من السعداء وتعرف صميم السعــادة ·

واما اولئك البشر الباقون ، المرتجفون خوفاً ، المتفرقون بحكم الزمان ، المطروحون في احضان الحياة ، فهم لا يعرفون لحظة من السعادة ، ويموتون مكروبين — وان يكن موتهم في غيبوبة بعض الاحيان — جازعين عَلَى نفوسهم المأسورة المضطهدة التي تهلك اختناقاً ·

منتخبات

« من اقوال الكاتب الروسي تشيخوف »

*****

قال بعض الحكماء — « جل ما يحتاجه الانسان من الارض ثلاثة اذرع فقط . » وحقيقة الامر ان ثلاثة اذرع لا تكفي سوى الجثة . اما الانسان فانه لا يحتاج ثلاثة اذرع او ثلاثة فدادين فقط بل حاجته الى كل الكرة الارضية أو الطبيعة باسرها . وهنالك في ذلك الفضاء الفسيح يُتاح له ان يظهر مواهبه كلها وخصائص نفسه الحرة أجمع

. . . . . .

يستحيل عليك ان تستميل الخنفسة الى الوردة

. . . . . .

قليلون يستطيعون الصمت حين الاقتضاء والانسحاب عند الضرورة

. . . . . .

مهما كانت الامرأة جميلة لا يمكنها ان تعيض زوجها بجمالها عما يشاهده فيها من فراغ النفس .

. . . . . .

قد يخفف الالم الالم . مثلاً — اذا دست برجلك ذنب هرة مصابة بوجع الاسنان تنسى عَلَى الفور ألم اسنانها

فكاهات

*****

— خطة حربية —

الفاحص العسكري — لنفرض ايها الملازم انك كنت تقود فرقة من الجنود فنفد ما معكم من الماء ثم عثرتم عَلَى غدير قد تسرَّب اليه مكروب الامراض فماذا تصنع ؟

الملازم — نأخذ الماء منه ونغليها اولاً ...

الفاحص — أحسنت

الملازم — ثم نستقطرها ...

الفاحص — أصبت

الملازم — ثم نشرب بيرا

. . . . . .

— حديث فلسفي —

فدعوس — بالصبر والحرص يمكنك صنع العجائب

غنطوس — خلِ عنك هذه الفلسفة العقيمة التي لا تطابق الواقع .

وخذ لك مثلاً عَلَى ذلك — أيمكنك بالصبر والحرص ان تحمل ماءً في منخل ؟

فدعوس — كيف لا · كل شيء ممكن بالصبر والحرص ···

غنطوس — ليتك تشرح لي ذلك ·

فدعوس — عَلَى أهون طريقة · أصبر الى ان يتجمد الماء ثم اضعه في المنخل

· · · · ·

— للضرورة احكام — ·

— هل علمت ان طنوس ابطل التدخين

— لا اصدق ذلك · فقد عهدته من المولعين بالدخان الى درجة قصوى

— صحيح · ولكنه اضطرَّ الى ذلك الان · فقد كان ضعيف البصر وبينا هو يدخن البارحة نفض سيكارته في برميل من البارود فراح الى حيث لا يدخنون ·····

زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

امين الريحاني

ملخص ما نشر سابقا

مريم ابنة الراعية ساره من الراهب ايلياس البلان هربت من دير الايتام في الناصره لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لامها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فطغاها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفا فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام ففاجأه عارف وقتله غيرة وهرب . فاتهمت مريم بالجريمة واعترفت وهي في السجن بما جرى للقس جبرائيل فانقذها بنفوذه وسار بها تاركا ديره الى طبرية ليستر عارها . وهنالك اقام واياها في بيت منفرد عند الحمامات المعدنية على مقربة من المدينة ريثما تلد وأقام لها خادمة اسمها هيلانة كانت غاوية فهداها واحسن اليها ولكنها لم تصدقه التوبة . فلما ولدت مريم سرقت هيلانة طفلها ليلا بايعاز امها الشقية واخفته عندها . واشاعت ان القس جبرائيل رمى الطفل في البحيرة . وبلغ الخبر مريم فنقمت عليه ولكنه اوضح لها ما يعرفه من حقيقة الامر . الا انها كرهت المعيشه معه فغافلته وهربت الى فرنسا مع سائحة افرنسية استأجرتها لتعلم ابنها العربية . ورآها في الباخرة نجيب مراد فمال اليها وزارها بعدئذ في منزل سيدتها بباريز . . . ورافقها مراراً يطوف بها باريس ويريها ملاهيها ويذيقها من ثمار حريتها الحلو والمر والظاهر والمكنون ووعدها بالسعي في سبيلها خيراً لتحسين مركزها . ثم علق بها ابن سيدتها الشاب فتبرمت منه وخشيت سيدتها سوء العاقبة فابتاعت لها جواز سفر الى وطنها . ولكن



الربيع — للمصور فيتوف

مريم احبت البقاء في باريس فعادت من محطة القطار تفتش عن صديقها نجيب مراد في النزل فوجدت انه قد سافر ولم يترك لها خبراً . فراحت تسعى لتجد لها وظيفة في احد المسارح فاتيح لها ان ترقص في احدها مدة وجيزة ثم أُقفل المسرح فسدَّت في وجهها طرق الارتزاق فباعت آخر ما عندها من الحلى وسافرت الى مصر . وفي اثناء ذلك كان القس جبرائيل قد وجد ولدها المسروق وطفق يفتش عنها . اما هي فظهرت عَلَى مسرح الكازينو في مصر بعد ان جاءته تطلب فيهِ عملاً فنالت نعمة في عيني الحاج محيي الدين احد صاحبي ذاك الملهي فسعى في اظهارها واشهارها رغبة في الوصول اليها ولكنها خاتلته وصدته . وقد كان رقصها الجديد مدعاة الى اعجاب الناس وسبباً لنجاح الكازينو وغنى اصحابه فطار صيتها وتهافتت الخاصة عَلَى اكتساب رضاها وهام بها الكثيرون فكانت تصدهم ولم تمحض ودها لسوى الشاعر مصباح . ولما أيس محيي الدين من التقرب منها سافر الى سوريا في عطلة الصيف ومرَّ بفلسطين فعلم لما كان في الناصرة حديث نشأتها وقصتها في بيت مبارك وهربها الى طبرية وولادتها فعاد الى مصر يسعى في اسقاطها مرًّا

تابع ما قبله

وبعد اسبوع جاءها يقول — البشرى ! لقد امر افندينا ان تمثلي امامه في قصر القبة . وهذا شرف لم تنله راقصة قبلك . لا تشكريني . فلست الساعي بذلك . ولا الفضل لي . انما نحن نسر لسرورك . ونشاركك ايضاً في ذا الشرف وذا الاكرام .

رقصت غصن البان في قصر القبة امام سمو الخديوي فاعجبه جداً رقصها واثنى عليها . وجعل اعضاء الاسرة الخديوية واعيان القاهرة يعزمونها بعد ذلك لترقص في بيوتهم . فغرَّها الفوز وطمحت نفسها الى المزيد فيه . ومع انها ادركت ان هؤلاء الاعيان يعزمونها كراقصة لا كسيدة من اتراب نسائهم فظلت طامحة شافنة ثابتة في ظنها بل في وهمها انها لا بدَّ ان تنال

منزلة سامية في الهيئة الاجتماعية . وكانت غصن البان تسر لنفسها ان رغبتها الشريفة انما هي شريعة ينبغي ان يحترمها الناس .

ولما جاءها ذات يوم دعوة الى البالو الخديوية من السر تشريفات لم يخطر في بالها ان هذه ايضاً من مكارم الحاج محيي الدين بل من دسائسه. بل ظنت ان آمالها بدأت تحقق وان ذلك من طلائع ما تستوجبه منزلتها

حضرت غصن البان البالو تستصحب صديقها الشاعر مصباح افندي. فالتقت هناك بصاحب الكازينو . فجاء يسلم عليها ويهنئها ويلاطفها

— نوَّرتِ القصر ، يا غصن البان ، يا محجة انظار الناس يا —..

— حسبك من هذا يا سيدي محيي الدين .

— كلمة اقولها لك فمشت واياه الى ردهة النخيل وجلسا عَلَى ديوان محفوف بانواع الازاهر والنباتات . ونجوم السماء تبدد من سقف الزجاج كالعصفر والاقحوان في سهول لبنان .

— فضلك يا غصن البان عَلَى الكازينو عميم . وقد اصبحت ذات منزلة عالية — لا تقاطعيني ولا تعتذري وتتعللي حسب عادتك . البيت الذي انتِ فيه لا يليق بك فالادارة تعد لكِ بيتاً مفروشاً في شارع قصر النيل وترجوك ان تقبلي هديتها فتقيمين فيه ما زلتِ في القاهرة .

فدهشت غصن البان واغتمت جداً ولم تفه بكلمة جواباً

— ما بالك ? أترفضين هدية الكازينو

فرفعت يدها الى جبينها كأن صداعاً اصابها وقالت

– ادركت يا سيدي محيي الدين دقائق صنعك . قتلي والله تروم بفضلك . انك لاظلم الناس ، لاظلم الناس . تكرمني وانت تذلني ، تكرهني وتحسن الي . وانت تعلم انني لا احبك – لا احبك . ارحمني ! ورق لحالي ! ووالله ان ملكتني فلا تملكني حية . اعذر مني حرية قولي وحرية فعلي . هذه شيمتي .

– اكرمك فتشتميني . ولا بأس . ولكنك مخطئة في ظنك لقد ادركت من زمان ما جهرتِ به الان فمنعت قلبي عنك . وان ما نلته من الاكرام في هذه الايام هو بعض حقك ولا فضل لي في شيء منه . تأكدي ذلك . وليس البيت هدية مني . قلت لك –..

– حسن حسن . اقبله عَلَى شرط ان احاسب الادارة به . ادفع الاجرة من كيسي .

– لا فرق . لا فرق .

نقلت غصن البان الى بيتها الجديد فاقامت فيه محفوفة بالخدم ممتعة بنعيم الدنيا نعيم الاجتماع . وبذلت في فرشه وزينته فوق ما كانت تحصله من المال . وامسى بهوها مجتمع الشعراء والكتاب والباكوات من الطبقة التي قلما تراعي اصطلاحات الاجتماع . ولا يهمهم ان يقال فيهم انهم من اتباع راقصة او مغنية . وكانت تعد لهم المآدب الفاخرة وتدهشهم كل مرة بتحفة جديدة ابتاعتها او بأثر نادر عجيب . وبكلمة اصبحت غصن البان ربة بيت وصاحبة منزلة . لا تُعترض كلمتها في المجالس ولا يُرد في مخازن

البلد طلبها .

ولكنها مع ذلك ظلت راقصة في اعتبار الناس . وكثيراً ما كانت تتألم حتى من الاقربين اذا تجاوزت حدها . ولا غرو ، فالراقصة في الشرق مهما اتقنت فنها وابدعت لا تستطيع ان تكتسب اكرام الناس الحقيقي المجرد من مشوهات الغرور والادعاء والتعطف . رقصت امام الخديوي فانتقد بعض الصحافيين سموه وطعن بها طعناً ذميماً . حضرت البالو فقيل به هذه بدعة لا تغتفر . فتحت بيتاً في شارع قصر النيل فصاح نساء الاعيان – وغداً تدعونا من اترابها . الى متى هذا الغرور ?

حاولت غصن البان ان ترفع نفسها اجتماعياً الى منزلة فنها فلم تفلح . فعادت الى نفسها تعيش حرة مستقلة كما يطيب لها . وقنعت بشهرتها التي لا تلبث ان تزول ، ونعيمها المادي الملازم مثل ذي الشهرات وبمن حام حولها من المتحذلقين والكيسين عشاق جمالها .

ولا يجوز ان نغفل حقيقة هامة في حياتها وهي انها لم تستسلم الى الاقدار تمام الاستسلام . فكانت تسعى دائماً لنيل ما تتوق اليه نفسها وما يتطلبه عقلها وقلبها . فثبتت في الجهـاد حتى الفوز او الفشل . وهي وان عاشت لاميالها واهوائها فلم تكن كسائر الراقصات والغواني . ولكنها في ما شاع عنها من امر غرامها وحرية اختيارها اثارت عليها خواطر زميلاتها ومن حُرم مجلسها وهبات قلبها من الطالبين . وقلما همها ذلك . قالت الراقصات – تعيش مثلنا وتترفع علينا . ما شاء الله ! وقال بعض الشبان – ان هي الا

موسسة . وكان الحاج محيي الدين يسمع مثل هذه التهم والفريات فيغضي عليها ويستمر في اكرام غصن البان

— الفصل السابع عشر —

جآء ذات ليلة خادم الكازينو يقدم الى غصن البان بعد ان اتمت رقصها باقة من الورد . فلما وقع نظرها عَلَى البطاقة فيها اعتراها هزة مبهجة مزعجة معاً . فارتدت ثيابها وهي تفكر بمن خدعها في باريس وجفاها وجآء اليوم يجدد عهد الحب . ولكنها مع ذلك لم تكره نجيب مراد وقد اعجبت الان بجرأته واقدامه. ولما قابلته مرحبة باسمة بادرها قائلاً لا شك انك ناقمة عليَّ

— لا لا . وحياتك .

— وحياتك ان امراً هاماً استدعاني ذلك اليوم من باريس ولم اتمكن من ....

فقاطعته غصن البان قائلة— لا ذنب مع استغفار . فقد عذرت وصفحت. قل لي . كيف حالك ؟ ومتى جئت القاهرة ؟ وكيف علمت بوجودي هنا ؟

— جئت القاهرة منذ اسبوع ولما قرأت في الجرائد عن الراقصة الشهيرة في الكازينو قلت هي مريم لا شك .

— اسمي الان غصن البان .

— نعم يا ست غصن البان. تفضلي .

— الى اين ؟

— الى نزل كنتيننتال نتناول شيئاً من الطعام :

وبينا هما جالسان الى المائدة عاد نجيب مراد الى موضوع سفره من باريس. فقاطعته ثانية تقول — غيِّر الموضوع — لا حاجة يا صديقي للاعتذار — اما قصتي بعد ان سافرت فطويلة اقصها عليك في غير ذا الوقت والمكان

ودخل اذ ذاك مصباح افندي فابصر غصن البان فجآء تواً يُسلم عليها

— اهلاً بشاعري العزيز . تفضل . سادهشك بعلمي . البارح زارني احد المشائخ فعلمني آية اتلوها الان عليك — اجلس حيث يوءخذ بيدك وتبر ، لا حيث يوءخذ برجلك وتجر .

— ألحنتِ . واللحن جريمة . تُبر وتُجر لا تَبر وتَجر . اذكري ذلك . فلو سمعكِ الشيخ لنفض منكِ يديه .

— النحو والمشائخ سيان عندي . بل النحو مثل المشائخ شعره ابيض . بارك الله لك فيه . اقدم اليك صديقي نجيب افندي مراد من اعيان بيروت

— انعم واكرم ! شرَّفت بلدنا .

— وحضرته ...

فقاطعها نجيب قائلاً — حضرته بغنى عن التعريف . مصباح افنديَ شرفت فآنست .

— جئتك يا غصن البان بخبر مدهش

— وما هو ؟

— في القاهرة شخص واحد لا يعجبه رقصك

— من هو ؟ قل لي من هو . فقد سئمت من يعجبهم رقصي . فلا شك

ان الرجل ممتاز بعقله ·

— هو واعظ شهير ندّد بك عَلَى منبره ·

— افسدتَ الطبخة · هو شيخ من مشائخ الازهر · ولا عجب

— بل هو قسيس من قسس النصارى يُعلم في احدى مدارس الافرنج هنا

— انعم واكرم بشيخك وبقسيسي · ليتك تركتني في وهمي · فقد مثلت لنفسي رجلاً مثلك او مثل نجيب افندي ووددت التعرف به

فقال نجيب — لو زرتِ سوريا ورقصتِ هناك لشاهدتِ من مثل هذا الرجل المئات والالوف · كلنا في سوريا هذا الرجل · لا نرى في مثل رقصك ما يراه اخواننا المصريون ·

— اي انكم لا تخدعون مثلنا · لتهنأ سوريا بحصافة رجالها ·

— بل لا نتأثر مثلكم · ارجوك المؤاخذة · فقد اسأت فهمي · اردت والله ثناء ·

— وانا كذلك ·

فقالت غصن البان ضاحكة — والحمد لله عَلَى سلامتي · خطر في باليَ المثل السائر — ولكنه لا يليق بذا المقام · فلا بأس ان تقارضتم الثناء باسمي عَلَى شرط ألاَّ تشاركوني به · لنشرب سر مصر وسوريا

فقال نجيب مراد — وفلسطين ايضاً ·

فتجهمته غصن البان وقالت عَلَى الفور — لا اشرك مع البلاد المقدسة بلاداً

— الحق معك · ولكن الفن يا غصن البان يتعدى مثل الدين البلاد ·

ومصر بلاد الفن قديماً وحديثاً · سر سوريا ومصر ·

ثم قال نجيب مراد ليظهر للشاعر انه اسبق الى قلب الراقصة الشهيرة منه — أتذكرين يوم شربنا هذا السر في باريس ؟

فاغتاظت غصن البان ولم تكترث بما قال · وفي تلك الآونة قرب من المائدة رجل نحيل الجسم عدل القامة يناهز الاربعين من العمر حنطي اللون غائر العينين في وجهه اثر الجدري واثار القصف والتهتك · وهو يلبس عوينة كأكابر الانكليز ويميل بطربوشه حتى حاجبه الايمن فيكاد والزجاجة يتماسان · فابصرته غصن البان قادماً اليها فبادرته وهي جالسة بالسلام · ومدّت اليه يدها فقبلها ·

— اهلاً بسعادة الباشا · جئت بوقتك لتخلصني من حجر الرحى · اكاد أسحق بين حب سوريا وحب مصر ، بل بين التجمل والمسايرة · وانت لا تتجامل حتى غصن البان · ولا عجب فانا لا احبك ولكني احب حديثك · تفضل · اجلس بيني وبين الشاعر · وأجرني منه ·

ثم قدّمت اليه جليسيها وقالت تعرفهما به — صاحب السعادتين الحائز عَلَى الرتبتين المصرية والانكليزية بل ولي النعمتين — نعمة الملك ونعمة الامير — سر همت باشا ·

فاحنى سر همت رأسه باسماً ابتسامة الازدراء ولسان حاله يقول متهكماً — علمت شيئاً وفاتت عنك اشياء · ثم أمر الخادم ان يحضر زجاجة من الشمبانيا وقال يخاطب غصن البان — هل سررتِ في الاقامة بحلوان ·

— كيف لا وجئت بهذا السعال المكرب ؟ ارجوك ألاّ تذكرني بها . سر همت باشا يا نجيب افندي عالم أسر ... ما هي الكلمة ؟

— اثري .

— أثري . أثري . أي انه لا يهتم لغير الماضي — الماضي القديم البعيد . يحفر القبور ، ويغازل الموميات .

— اخطأت . ننقل القبور الى القصور . فانها اجدر ببيت كريم من حي لئيم . ونغازل الخالدات الذكر لا الموميات — الخالدات الذكر عرائس الحب . لا يهمني من الحاضر غيرهن ، والبخور نحرقه في هياكلهن ، والخمر نشرب عَلَى ذكرهن ، وما سوى الحب والخمر هلس كله بهلس . الاحتلال الانكليزي ، والحزب الوطني ، ومشائخ الازهر ، ومفتي الديار المصرية ، وتحرير المرأة ، والبالو الخديويّ ، ورقص غصن البان هذه كلها تدل عَلَى امر واحد هام . وهو ان الناس هرباً من فراغ في قلوبهم وظلام في عقولهم وعقم في نفوسهم يتلهون بالخزعبلات السياسية والاجتماعية وبالتخرفات الدينية والفنية . ترقص غصن البان فتعبث بالعقول والقلوب ، يخطب مصطفى كامل فيطرب الناس ، يتفاسف الشيخ محمد عبده فيسلينا ، يعظ شيخ الازهر فيضحكنا ، تصدر اوامر النظارة الخارجية من « دون ستريت » الى المعتمد الانكليزي فتبعث بنا الى الحمام ، يصدر قاسم امين كتاباً فترتفع اسعار « النسخات » في البلد ، صل عَلَى النبي ! اكتشفت أمس اكتشافاً يزعزع اعتقاد هؤلاء النوابغ كلهم لو انهم يعلمون . مددت يدي أمس الى صدر ملكة من ملكات

الفراعنة ...

فقاطعته غصن البان هاتفة — يا للفضيحة ويا للعار !

— اي والله . جسارة هي بل سوء ادب مني ولكن العلم في بعض الاحايين فضولي . مددت يدي الى صدر الملكة فلقيت فيه صفيحة من البردي كتبت فيها هذه الكلمات « سأوافيك غداً نصف الليل الى البستان تحت شباك البهو الكبير »

— الله الله ! يا دائم يا كريم !

— نعم . كل ما سوى الحب يا ست غصن البان هلس بهلس . كله يزول « سأوافيك نصف الليل الى البستان تحت شباك البهو الكبير » لعمري ان في ذي الرسالة سر الحياة كلها . ولكن فيها ما هو اغرب من « سأوافيك » فيها اسم علمت بعد البحث والتنقيب انه اسم الكاهن الاكبر — كاهن الهيكل الملوكي .

ورفع النظارة الى عينه يثبتها تحت حاجبه وهو ينظر الى غصن البان كأنه يسائلها رأيها . فقالت — وهل وافته الملكة ؟

— وافته الى البستان ورافقته الى قدس الاقداس في الهيكل . وماتت في سريره وأوصت ان تدفن الرسالة معها وفي صدرها . انما هذه الخالدات الذكر تزول الاديان والامم ولا يزول الحب . تتغلب العادات والسياسات وتتغير الازياء والاسماء والحب هو هو — خالد ازلي ابدي . والعاقل لا يهتم في الحاضر لسواه .

— وهل عثرت يا سر همت عَلَى مومية راقصة من راقصات الزمان القديم·
او عَلَى أثر من آثار الرقص في الصور والتماثيل ?

— عندنا كثير منها ·

— بالله حدثنا بها ·

— غداً ارافقك اذا شئتِ الى المتحف المصري واطلعك عَلَى آثار الرقص وصور الراقصات والراقصين لان الكهان في قديم الزمان كانوا يرقصون والعذارى في الهياكل ···

فقاطعه مصباح افندي قائلاً — ويدعونهن بعدئذٍ الى قدس الاقداس · لله من الكهان !

— ولكن رقصهم جميل يشابه في بعض حركاته رقص غصن البان

فقال نجيب مراد — واللبنانيون حتى اليوم يجتمعون في الكروم في عيد مار باخوس اي اله الخمر عند الرومان فيرقصون رجالاً ونساء كما كان الرومانيون قديماً يرقصون ما يُدعى « باكانال » فيهرجون ويمرجون ويسكرون ايضاً رجالاً ونساء

— يظهر ان كل جميل مبهج في الحياة اصله الدين · كالرقص مثلاً والشعر والتصوير والنحت · كل الفنون الجميلة عند اليونان والرومان قديماً وعند الاوربيين حديثاً انما الدين اوحاها الى نوابغ البشر · ولكن الاديان اليوم قد افلست فلا توحي الى الناس غير الجهل والتعصب والرياء ·

— ما اسرعكم الى تجريم الاديان · الجهل يا مصباح افندي ، والتعصب

والرياء من حقائق الوجود الملازمة يمازج الخير شرها · الجهل مفيد · لولاه مثلاً ما احتل الانكليز مصر · وغداً يخيم عَلَى جيش الاحتلال ويتسلل الى « دونن ستريت » فتنتصر عَلَى الانكليز قوة سياسية جديدة · لولا الجهل مثلاً ما ظهر مصطفى كامل وامثاله في اوربا من زعماء الشعب الممخرقين · ولا غنى للشعب عن البهلوان يسليهم في ساعات اليأس ويضحكهم اوقات الضجر · البهلوان في السياسة او في الدين او في الملاهي ألزم منك يا ست غصن البان اما التعصب فهو لازم لحفظ التوازن بين الشعوب ، وبين عقائدهم السياسية والدينية · التعصب اساس كل اعتقاد ، والاعتقاد اساس الايمان ، والايمان اساس العمل والعمل — لولا العمل لكانت الارض قفراً بلقعاً · اما الرياء فان هو الا درع نتدرع بها عَلَى لوءم اللوءماء وجور الامراء · بل الرياء حجاب نسدله عَلَى نفس حساسة تأبى السفور في الاجتماعات حيث يختلط الحابل بالنابل ويحتك منكب الصعلوك بمنكب الامير — وها صديقي الحاج محيي الدين اخبث الناس واشدهم تعصباً قادم الينا · يا حاج محيي الدين

فسارع الحاج الى سر همت يسلم عليه معتذراً مستغفراً ·

— اثنيت عليك في حديثي · قلت انك اخبث الناس واشدهم تعصباً · فينبغي ان تشاربنا · هذه الكأس فقط ·

— لا اقبلها الا من يد غصن البان ·

— تعطفي اذاً يا غصن البان !

— فاتك يا سيدي محيي الدين استماع حديث سر همت باشا · فقد

حبب الينا الموت والحب .

فقال الحاج متهكماً — بل الحب والموت . رحم الله الفارض —

وان شئت ان تحيي سعيداً فمت به   شهيداً والا فالغرام له اهل

— ونعم وصرت اود ان اكون مومية من الموميات

— لافتش في صدرك عن رسائل الغرام ? ها ها !

— دعنا من المزح . فان حديثكم يا سادتي لذيذ مفيد جداً وبالاخص الفتاة جاهلة مثلي . مدحت الجهل يا سر همت اكراماً لي فاهنتني . اودعك ناقمة عليك .

ونهضت اذ ذاك غصن البان فنهض جلساوءها كلٌ يريد تشييعها الى منزلها . فقال سر همت — نلقي القرعة .

— لا لا . قد تقع عليك . نجيب افندي يشيعني الليلة .

وركبت وصديقها القديم عربة اوصلتهما الى منزلها . فدخلا الجنينة والحارس نائم في صندوقه عند الباب فوقفت غصن البان تودع نجيباً .

فقال مدهوشاً — أتغيرين عادتك معي ?

— لا بل هذه العادة . أنسيت باريس يوم كنت تشيعني الى منزلي عند مدام لامار

— ولكني لم أنسَ —

فقاطعته قائلة — لا لم تنسَ فوزك بل نسيت مقدماته . نسيت المكارم التي تكلفتها لتنال اربك . وانا لم انسها . فقد اتخذتها شرعة حياتي . دقائق

الحيل يا نجيب تغتفر اذا علمتنا وهذبتنا . وقد غفرت بعد ان ادركت حيلتك . وساحفظ لك ذكراً جميلاً في قلبي . ليلتك سعيدة .

ولم تقف غصن البان لتسمع جوابه بل دخلت الى بيتها واقفلت الباب فجاءت الخادمة تعينها في خلع ثيابها وتعد لها الحمام

وفي تلك الآونة طرق الباب طارق فجاءت الخادمة تفتح فاذا بمصباح افندي مضطرب البال مكفهر الوجه يطلب مقابلة سيدته فارتدت غصن البان ثوب الحمام واستقبلته في باب غرفتها .

— أفلا تأذنين لي بالدخول

— لا . لا . اهنتني في مجيئك الان جئتني متجسساً . وهب ان الرجل عندي في هذه الساعة فما حقك عليّ . ألم اقل لك مراراً انني حرة ، مستقلة ، ولية امري ، ولية نفسي ، امنح من اريد حبي واحرمه من اريد ?

— وستدركين خطأك وستندمين . انك يا صديقتي لفي ضلال مبين . من تمنحينه حبك فيمنحك حبه يلقي في قلبك مسئولية عظيمة — اذا كنت ذات وجدان . الحب يا غصن البان تقتله الحرية المطلقة كما يقتله الاسر المطلق . اذا احببتك وكرهتني فرحمة الله عليك . اذا احببتني وكرهتك فرحمة الله عليّ .

— لا ادرك معناك

— أو لا تقولين ادخل فاوضح

— لا . لا .

— ألأن في الداخل من تؤثرينه علي ؟

— ذلك لا يعنيك .

— ستندمين عَلَى ذا التصرف .

— لا اندم عَلَى شيء افعله من تلقاء نفسي . اتركني وحدي

— لو تأكدت انك وحدك ...

— كلمتي شرفي . أترتاب بما اقول ؟

— العذاب يذهب بيقيني . الغيرة تذبح ايماني .

— واذا ادخلتك تندم . تندم والله . اذا ادخلتك تقتل فيّ ما هو اعز من اليقين والايمان لديك .

— اما انا واما هو .

— في دخولك منزلي الليلة خروجك من قلبي الى الابد . ادخل . ادخل فتش وارح نفسك .

فدخل مصباح غرفتها وجعل يفتش كالمجنون تحت السرير وتحت الديوان ووراء السجوف ووقف مذهولاً حائراً بل مدحوراً مذموماً .

— أفلا تخجل الان .

— وما أدراني —

— ألم تزل في ريب مما اقول ؟ لقد جنيت عَلَى نفسك !

وصفقت كفاً عَلَى كف فجاءت الخادمة .

— شيعي مصباح افندي الى الباب

— الفصل التاسع عشر —

الراهب الذي ذكره مصباح افندي تلك الليلة في نزل كنتيننتال انما هو راهب البحيرة — ذاك الذي كان في طبريا يستحم بحماماتها المعدنية يوم كان القس جبرائيل مقيماً في تلك الناحية ومريم — بل هو القس بولس عمون الذي اجتمع به القس جبرائيل بلبنان . ولما سافر فجأة من طبريا جاء الى مصر يعلم اللغة العربية في احدى مدارس الافرنج . وقد يذكر القارىء ان القس بولس من علماء الكنيسة العصريين . فيلسوف روحي غزير المادة ثاقب الفكر يجمع بين اشد النزعات الدينية والادبية مؤلفاً مقارناً ، بهي الطلعة ، حاد النظرات ، فصيح اللسان ، شديد العارضة . يحمل في عظاته الرنانة عَلَى كفر شبان العصر مستشهداً بفولتر ، وعَلَى تهتكهم وفحشهم مستشهداً بالقديس اوغسطينوس . وما لبث ان اشتهر في مصر واصبح محترماً معززاً في قومه يشار اليه بالبنان .

ولما ظهرت غصن البان تحدجها الشهرة من كل مكان ، وجعلت الجرائد تنشر الفصول الطوال فيها مطرئة مغرقة ، والناس من علية القوم وعامتهم يلهجون بذكرها ، طفق القس بولس يندد في عظاته بها ويحذر الناس من ذا الجنون بخزعبلات الملاهي والفنون المؤدية الى فساد في الذوق ، وفي الاخلاق ، وفي العقول .

والقس بولس حر الكلمة شاذ الطباع لا يحفل باقوال الناس اذا رام عملاً ولا يهمه انتقاد اخوانه اذا انبرى يناصر ما يظنه حقاً وعدلاً · فقد ذهب ذات ليلة الى الكازينو ليشاهد بعينه رقص غصن البان · فلما ظهرت الراقصة عَلَى المسرح في مظهرها البسيط الفتان اعترته هزة اعجاب احدثت في قلبه تأثيراً جديداً · بل استيقظت فيه عاطفة الحنان والوداد — اجل فقد سحر القسيس برهة كسائر الناس · أوقفت حركات الراقصة حركة المنطق فيه والبيان · افسدت حجته · بلبلت افكاره · ولكنه لم يلبث ان عاد الى علمه وتقاليده — الى معقوله في الاشيآء ومنقوله · واستمرَّ يندد برقصها ويحذر الناس من السم في دسم فنها ، ومن الشر في سحرها ·

وفي صباح ذات يوم بينا هو ذاهب الى الكنيسة خطر له خاطر استعاذ بالله منه — أحق ما اقول · اعدل ما انا فاعل ؟ ومن هي يا ترى هذه الفتاة من اين ؟ فان بين رقصها ورقص بقية الراقصات فرقاً عظيماً · في رقصها شيء من التقوى ، شيء من العبادة ، شيء من الحزن · أحق ما اقول فيها ؟ أعدل ما انا فاعل ؟

وظلت هذه الافكار تتجاذب معقوله ووجدانه حتى حملته ثانية الى الكازينو · جآء يطلب مقابلة صاحبها الحاج محيي الدين

فادخله الخادم الى الادارة فاستقبله الحاج مرحباً واجلسه عَلَى الديوان · فعرَّف القسيس نفسه اليه قائلاً — وقد تظنها خبثاً ونفاقاً ممن يندد براقصتكم الشهيرة ويرغب بمشاهدة رقصها ·

فهتف الحاج مردداً وهو يعد سبحته — استغفر الله · استغفر الله · سبحانه تعالى جبلنا كلنا من طينة واحدة — الحاج والقسيس والراقصة · والله سبحانه يحب الجمال ·

— وهل لك ان تطلعني عَلَى شيء من امر هذه الفتاة ؟ هل هي من مصر

— لا يا سيدي · لا ·

وجآء اذ ذاك الخادم بالقهوة ·

— تفضل · لا · لا · العفو ! وما الغرض من سوءال سيادتكم ؟

فسكت القس بولس عن الجواب هنيهة ثم قال — سمعت ان اسمها غصن البان انما هو اسم مستعار ·

— هذا صحيح ·

واطرق الحاج قليلاً · ثم نظر الى جليسه نظرة ساحر يدَّعي علم الغيب

— نظرة خبيثة مزعجة ·

— اشعل سيكارة — واطرق ثانية ·

— ممنون ·

فرفع اذ ذاك الحاج رأسه فجأة كأنه لقي ما اضاعه او كأنه يسائل جليسه وهل انت الرجل ؟ ثم قال

— صحيح · صحيح · اسمها الحقيقي مريم · مريم · وقصتها عجيبة غريبة · سبحانه تعالى يمنح آلاءه من يشاء ويحرمها من يشآء · يرفع الوضيع ويخفض الرفيع · فان نشوء غصن البان لمن اعجب الامور · ولا اخشى

ان اطلعكم عَلَى شيء من امرها · ولا اكتم سيادتكم — اتأمرون بأركيلة ؟

— ممنون لا ادخن ·

— لا اكتم سيادتكم ان تنديدكم بها ينفعها وينفعنا اكثر من مديح الشعراء واطراء الصحافيين · ووددت والله لو ان مشايخنا مشايخ الازهر يقتفون اثركم · مالنا وهذا · مريم يا سيدي ولدت في قرية صغيرة قرب الناصرة · وتربت في دير من اديرة الايتام فيها · وخدمت سنتين في بيت احد الوجهاء هناك · و···

وامال الحاج بعمامته الى الامام وتثبت في جلسته عَلَى الديوان وهو يحدق النظر بالقسيس · ثم قال — وحدث لها من الحوادث ما لا يليق ذكرها · حوادث محزنة · محزنة جداً · وجاءت القاهرة من باريس · وهي الآن — لا تواخذني — ربة الرقص في البلاد · هذه قصتها بايجاز · سبحانه تعالى وهّاب الذكاء · رب النعم والآلاء · يمنحها من يشاء ويحرمها من يشاء · الذكاء نعمة · والجمال نعمة · وغصن البان ···

فقاطعه القس بولص قائلاً — وهل لك ان تدلني الى بيتها ؟

— عَلَى الرأس والعين ·

وصفق كفاً عَلَى كف فجاء الخادم فقال يخاطبه — دل سيادة المحترم —

— لا · لا · لا اكلفه الى ذلك · وليس غرضي ··· تكرم بعنوانها فقط

— كما تريد · وأدى اليه ورقة كتب فيها عنوان غصن البان

فاخذها القس بولص ونهض شاكراً مودعاً · فشيعه الحاج محيي الدين

الى الباب · وشيعه بنظره وبفكره الى ما وراء الابواب وهو يعد سبحته ويهز رأسه متأملاً حائراً ·

— الفصل التاسع عشر —

جلست غصن البان الى المائدة تتناول الفطور وبيدها بضعة تحارير جاءتها صباح ذاك اليوم في البريد · ففتحت الاول فاذا هو من سر همت باشا يسألها مرافقته الى المتحف المصري ، وفتحت الثاني فاذا هو من احد الشبان المتيمين فمزقته باسمة ، والثالث من فرّاش في الموسكي يلح عليها في تسديد حسابه فمزقته واجمة ، والرابع من احد تجار العاديات يتوعدها بالشكوى ان لم تدفع ما عليها فمزقته حانقة ، والخامس — مزقته ، والسادس كذلك ، والاخير وقد ادركت فحواه من العنوان لم تتنازل ان تفضه · وضربت المائدة وهي تقول

— لينتظروا مثلما انتظر · وكيف لي بدفع ما عليّ والكازينو لا تدفع ما لي ؟ يا مرجانه ! يا مرجانه !

— نعم يا ستي ·

— ألم تسمعي الجرس · من ذا المبكر يا ترى ؟

فراحت الخادمة تفتح الباب وعادت تقول

— الصائغ ستي يطلب مقابلتك ·

— ليجيء بعد الغد · بعد الظهر لا صباحاً

فراحت مرجانه وعادت تقف امام سيدتها خجلة مضطربة ·

– ما بالك ؟

– هو في الباب يقول اما ان تعيدي الخواتم واما ان تدفعي ثمنها الان

فنهضت غصن البان تحتدم غيظاً ودخلت الى غرفتها وعادت بعلبتين صغيرتين دفعتهما الى الخادمة لتسلمهما الى الصائغ ·

– قولي له – وسكتت تحارب غيظها ثم قالت معلمتي تسلم عليك وتعتذر اليك ·

وما كادت تنتهي من فطورها حتى قرع الجرس ثانية ففتحت مرجانه الباب واذا براهب يسأل عن غصن البان ·

– وما اسم سيادتكم ·

– قولي لها ان راهباً من بلادها يروم مقابلتها ·

فجاءت مرجانه تخبر سيدتها فقالت غصن البان كأنها تخاطب نفسها – راهب ؟ راهب من بلادي ؟ قد هربت من الرهبان · ولا شك ان ذاك الراهب الذي يندد بي وبرقصي · لا · لا · ثم خاطبت الخادمة – قولي له انني لم ازل نائمة ·

فعاد الراهب في اليوم الثاني فقالت له الخادمة بعد ان قابلت سيدتها – الست مشغولة الان ولا يمكنها ان تقابلكم ·

فلم يحفل بذا التمنع والاستكبار وراح ثالثة يطرق باب غصن البان في شارع قصر النيل فكان الجواب فصل الخطاب

– لا رغبة للست بمقابلة سيادتكم ·

– لا بأس · لا بأس ·

وانثنى القس بولص عمون راجعاً الى مدرسته كاظماً غيظه لائماً نفسه عَلَى ذا الاهتمام لراقصة غرة ضالة ·

وفي ذاك الصباح بين كانت غصن البان تفض تحاريرها وتمزقها كان عاطف بك والحاج محيي الدين في ادارة الكازينو يتحدثان بشأنها

– أوَ انت آذنتها ان تبتاع ما تريد باسم الكازينو · تفضل · ودفع عاطف بك الى شريكه ثلاث قوائم من بعض التجار في الموسكي ·

– لا بأس · لا بأس · ولا بدّ من وضع حد لذلك : ادفع هذا المبلغ من اجرتها واكتب الى هوءلاء التجار اننا غير مسئولين من الان فصاعداً عما تبتاعه غصن البان ·

– بل ارى من الواجب ان نعلن ذلك في الجرائد · والا فتصبح غداً شريكتنا · وقد قلت لك ان الاقبال عَلَى الكازينو هذه السنة لا يكون كالسنة الماضية · فقد اخطأنا في اتكالنا عليها وحدها · اخطأنا · فالناس يملون كل شيء ·

– لا بأس · لا بأس · في الشهر القادم نغير اللائحة ·

– من رأيي ان نبتدىء منذ الغد · في البلد جوقة من الرواقص الافرنسيات

– ولكن وثيقتنا وغصن البان لا ينقضي اجلها حتى آخر الشهر القادم · دعها الان · ولا تفاتحها بالامر ·

وركب الحاج محيي الدين عربة يقصد ادارة احدى الجرائد · فابصر

وهو مار بالازبكية الشاعر مصباحاً جالساً في السبلندد بار وحده يشرب الوسكي والسودا . فأوقف العربة وصرف الحوذي وجاء يسلم عليه

— يا مصباح افندي .

— والسلام عليكم . تفضل .

— مالي اراك عَلَى شيء من الكدر ؟

— وهل يصفى الزمان لابن انثى يا محيي الدين

— وهل يرضى الشاعر بالشمس والقمر لو سُخرا له يا ترى ؟ سبحانك اللهمَّ ! انت الوحيد يا رجل المقرب من غصن البان الممتع بجمالها وحبها المقيم بنعيم ....

— حسبك . حسبك . ونادى مصباح افندي الخادم . فطلب الحاج محيي الدين فنجان قهوة ..

— وماذا دهاك قل لي . كنت اظن ان الشاعر حليف النصر دائماً في الهوى .

— الشاعر يا محيي الدين يحب حباً وثيق العرى قصير المدى . يحب مرة كالفارض ويعشق دائماً كالبهاء زهير ، يفرغ نفسه في يوم واحد ويعيش مداعياً مموهاً حزيناً بقية ايام حياته .

— وهل نبذت غصن البان يا ترى ؟

— بل نبذتني . لقد ذاقت قبلي السم في الثمالة فكسرت الكأس .

— وكسرت قلبها انتقاماً . اتقوا الله ايها الشعراء .

— والله لقد كسرت الكأسِ وكسرت نفسي . حبها نار يا محيي الدين وحب الشاعر نور .

— ولكن في غصن البان غير جمالها الظاهر ما يحبب مثلك اليها . ان مواهب نفسها لما يعجب به اولو الالباب والنهى . ولو اطلعتك عَلَى شيء من امر نشأتها لازداد اعجابك بها وحبك لها . هي نابغة مثلك والله . آية من آيات الدهر .

وجعل يقص عليه ما قصه عَلَى القس بولس جبران . فرفع مصباح رأسه مصغياً وابرقت اسارير وجهه . فاستمرَّ الحاج في الاغراء طي التلبيس والاعجاب .

— وقد أتهمت المسكينة بجريمة ارتكبت بسببها في بيت اسيادها في الناصرة . وسجنت خمسة اشهر . قصتها والله عجيبة ! — وفرَّت هاربة الى طبريا مع راهب يقال انه ابوها . ووضعت هناك ولداً .

فحملق مصباح عينيه مدهوشاً . أصحيح ما تقول ؟

— لقد ساقتني التقادير الى الناصرة في سياحتي الصيف الماضي والناس هنالك صغيرهم وكبيرهم يعرفون قصتها . والله احزنني امرها

ونظر اذ ذاك الى مصباح افندي يستطلع ما كمن وظهر فيه من مفعول ذا الخبر . ثم قال وهو راضٍ بما كان

واظن ان اباها اليوم في القاهرة . اي والله . قد يكون ذاك القسيس الذي يندد بها وبرقصها .

— هذا من اعجب ما سمعت حياتي · وهل اخبرت غصن البان ·

— لم اخبر احداً غيرك · الاماجد يا مصباح افندي يسترون العيوب · ولولا ثقتي بك ما اطلعتك عَلَى ما اظنك تسره ولا تذيعه · ولكن غصن البان اصبحت الان سيدة نفسها وسيدة الفن · وقد لا يهمها من ماضيها شيء · سبحانه تعالى يمنح آلاءه من يشآء ويحرمها من يشآء ·

فنهض مصباح افندي عَلَى الفور كأن جاءه الوحي وودع محيي الدين معتذراً وراح مسرعاً الى غرفته يدون الآيات ·

والحاج يضحك في نفسه ويقول — ما اغرب اطوار هوءلاء الشعراء · قد يذبح الشاعر مصباح الراقصة غصن البان هذه الليلة · ويرثيها غداً · سبحان الله · سبحان الله ·

وفي اليوم التالي نشرت ادارة الكازينو اعلاماً في الجرائد موءداه انها غير مسئولة عن ديون غصن البان السابقة والحاضرة والمستقبلة · فازداد قلق التجار وحاموا حول الراقصة ملحين ملجين مصرين متوعدين · غداً وبعد غدٍ وبعد بعد غدٍ كلمات لا تسحر التجار · فاصدرت الدعاوى · واصدرت المحاكم احكامها · وبوشر كل في برهة شهر واحد تغيب فيه الحاج محيي الدين عن مصر عمداً · ووقف الدلال في البيت الذي أدبت فيه المآدب الفخيمة · وتاهت فيه غصن البان بضعة اشهر عزاً ومجداً · يبيع بالمزاد ما فيه من الرياش والتحف والاعلاق والاثار · وكانت الجرائد اثناء ذلك تنشر المقالة تلو المقالة في افلاس غصن البان وسقوطها ، معددة دائنيها وعشاقها ،

واصفة تلك المآدب الفخمة التي كانت تأدبها لاصحابها ومريديها ، مرددة اقوال الحكماء في القصف والافراط مذكرة ، منذرة ·

فطالعت غصن البان بعضها ولم تبالي ولكن مقالة واحدة اثارت كل ما في نفسها من كوامن الغيظ والاسى مقالة عنوانها « مريم الناصرية » علمت من لهجتها واسلوبها انها من قلم الشاعر مصباح افندي قصَّ فيها الكاتب قصة غصن البان من حين دخولها بيت مبارك خادمة حتى دخولها الكازينو راقصة · فجآء عَلَى ذكر هربها من الدير ، وهربها واحد الرهبان من الناصرة ، وهربها من طبريا · ولم يكتفِ الكاتب بذلك بل قال انها هي التي ارتكبت الجريمة في الناصرة وسجنت هناك وخلصها معلمها احد اعضآء المحكمة · وانها ابنة راهب من رهبان دير النجاة · وانها ولدت في طبريا ولداً رماه ابوها في البحيرة وغير ذلك من الحوادث التي تفسد حقيقتها الاشاعات وتجسمها الغايات والاحقاد ·

احدثت المقالة هذه ضجة في القاهرة وتناقلتها بعض الجرائد في مصر وسوريا وفلسطين · وأمست غصن البان في عارها وبلائها كما كانت في عزها ومجدها حديث المجالس والقهاوي والحانات · وما كاد ينقضي ذلك الشهر الاسود حتى جاءها كتاب من الحاج محيي الدين كلل به مساعيه الحسنة ومكارمه فكان الضربة القاضية عليها · والكتاب فريد في بابه فلا نضن به عَلَى القارىء الكريم ·

الى العزيزة المحترمة السيدة غصن البان اطال الله بقاءها

تهديك اطيب التحية والسلام . ونأسف جداً لما دهاك من الدواهي . ووالله وددنا لو انها حلت بنا لا بك . ونسأله تعالى ان يحسن سلواك ويزيل همومك ولقد غمنا جداً تغيبنا الشهر الماضي عن القاهرة . فقد كنا بذلنا في سبيلك النفس والنفيس والله ! ولكننا لا نظن ان امر التجار يهمك . ولا يهمنا . المال يفدى بالمال . ونحن لم نزل كما كنا من محبيك وانصارك ومريديك وما تحتاجينه من المال موقوف لك . ولكن ما نشرته الجرائد غمنا جداً جداً . ونظن ان الجريدة التي نشرت تلك المقالة وفيها من المطاعن بعرضك ما يزعزع الجبال هي مسؤولة تجاه القانون . فاذا احببت ان ترفعي الدعوى عليها فمحامي الكازينو تحت أمرك يشهد الله والنبي عَلَى ما نقول . لقد غمتنا تلك المطاعن جداً جداً . سوّدت يومنا أدمت فوءادنا .

اما الوثيقه بيننا وبينك فبما اننا متعاهدون سابقاً وجوقة من الرواقص الافرنسيات يرقصن هذا الشهر عندنا ووجودك معهن يضر بهن بل يكسفهن تماماً . فلا نرى الان الى تجديدها سبيلاً .

اطيب التحيات ايتها العزيزة غصن البان من محبك

الحاج محيي الدين

كتب هذا الكتاب بخطه واعاد قراءته مرتين مستحسناً معجباً وبعث به الى « العزيزة المحترمة غصن البان » وهو يردد ضاحكاً قول الفارض —

وان شئت ان تحيى سعيداً فمت به   شهيداً والا فالغرام له اهل

وطفق يتمشى ذهاباً واياباً ويعد سبحته ويقول — اخطأت يا شيخي

يا فارض اخطأت . المرء يقتل من يحب ويعشق . اي والله يقتل من يحب ويعشق . ولكن الاوغاد يقتلون من يحبون بالخناجر ، والجبناء بالسم ، والمجانين بالمسدس . اما الاماجد فبالمكارم والنعم يقتلون من يحبون — نعم نعم . لو سقطت يا غصن البان من مسرح الكازينو ما ضرك ذلك — ولكن سقوطك من قمة الهرم الكبير — من ذروة الشهرة والعز والمجد !— الله . الله !

— الفصل العشرون —

رمى القس بولص عمون بالجريدة الى الارض وقبض عَلَى لحيته مطرقاً مفكراً — ينبغي ان اقابل هذه الفتاة مهما كان من امرها . ينبغي ان اقابلها .

ونهض من ساعته فارتدى جبته وحمل عصاه وذهب تواً الى البيت في شارع قصر النيل . فوجده مقفلاً مهجوراً . لا حارس في الباب . ولا احد في الداخل يلبي الجرس او النداء . الا ان الاطيار كانت تغرد في البستان حوله كأنها تردد قولاً قديماً محزناً « والطلول الدوارس هجرتها الاوانس »

انثنى القسيس راجعاً فسدد خطواته الى الكازينو فقابل هناك عاطفة بك فاعطاه عنوان غصن البان الجديد . فجاء الناحية حول البركة وقرع باب بيت في احد الازقة ففتحت له خادمة سوداء تقول — تريد ايه .

— غصن البان

— نقلت من هذا البيت الاسبوع الماضي .

— الى اين ؟

— لا اعلم · لا اعلم ·

واقفلت الخادمة الباب فجأة دون اعتذار كأنها أبت ان تجيب عَلَى سوءال آخر في الموضوع · فعاد القس بولص الى مدرسته وهو يقول — لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم · ولكن الهواجس حالت دون استسلامه · فبلبلت باله وأيقظت في فوءاده المحرق الموءلم من الذكرى · فكتب كلمة الى غصن البان ارسلها في البريد الى عنوانها الاخير · ولبث ينتظر · فمرّ الاسبوع الاول والثاني فلم يجئه الجواب ولا اعيد كتابه اليه · ثم ذهب الى ادارة البوليس مستقصياً · فرحب المدير به ووعد ان يبذل الجهد في البحث عن مقر غصن البان ·

وبينما كان القس بولس في غرفته ذات يوم يطالع في مجلة اسلامية مقالة في تحرير المرأة والحجاب جاءه الخادم يقول — قسيس من فلسطين يروم مقابلة سيادتكم ·

فنزل القس بولص الى صاعة الاستقبال واذا هو في حضرة القس جبرائيل مبارك ! وقف مبهوتاً اذ رآه يكاد لا يصدق ناظريه · ثم هتف متأهلاً مرحباً · وتعانق الابوان وجلسا جنباً الى جنب عَلَى الديوان ·

— كيف حالكم ؟ وكيف اخواننا في الناصرة ؟

— هجرتهم منذ اربع سنوات ·

فقال القس بولص متبحراً — صحيح · صحيح · ورحمة ابيك تخبرني· ألم تكن في طبريا منذ ثلاث سنوات مقيماً هنالك في زي الاعراب

— دعنا من هذا الان · فقد رأيتك لما كنت انت هناك ايضاً · سنعود الى هذا الموضوع ·

واستخرج القس جبرائيل جريدة سورية من جيبه فيها المقالة التي نشرت في جرائد مصر — المقالة التي عنوانها « مريم الناصرية »

— اقرأ هذه ·

— قرأتها يا ابتي قرأتها ·

— اذاً لي عندكم حاجة · انا غريب هنا ولا احسن التجول في المدينة ولا احب ذلك ·

— حاجتكم نقضيها عَلَى الرأس والعين · وماذا عساها تكون ·

— مهمتي سرية

— حسن · لنصعد اذاً الى غرفتي ·

— لا احب ان يراني احد هنا ·

— الغرفة قريبة · والتلاميذ الان في دروسهم · تفضل ·

وصعد القس عمون الى غرفته يتبعه القس مبارك · فاذا هو عند دخوله في حجرة صغيرة فيها سرير وديوان صغير وكرسيان وحصير · ومنضدة للكتابة ورفرف فوقها طويل — لوح بسيط غير مدهون وغير مصقول احنت الكتب ظهره · وعَلَى الحائط صورة القديس انطونيوس بين صورتي العذراء ويسوع من الصور اللماعة الملونة المطبوعة في المانيا ·

اقفل القس بولص الباب ودعا الزائر الى الديوان وجلس عَلَى كرسي

امامه · ينصت لحديثه ·

— جئت القاهرة يا ابني ملبياً صوت الرب الهي · جئت ابحث في هذه المدينة عن فتاة من بلادنا لعلك تعرفها · صاحبة هذه القصة · فتاة خاطئة كما تعلم شقية يتيمة وحيدة · انقذتها من العار والبلاء مرة · فضاقت مني صدراً وهربت الى فرنسا ثم عادت كما يظهر الى مصر — المقالة هذه لا تخلو من الحقائق — وقد احاق بها العار والبلاء ثانية · ماتت امها في الناصرة منذ خمس سنوات واوصتني بها · وقد تجلت لي الحقيقة الرائعة في الزهد والتنسك منذ تلك الساعة · ساعة عرّفت امها · ولا يخلص البر والنسك الا من خلص نفساً غير نفسه · فهل لك ان تساعدني في البحث عن هذه الفتاة وفي خلاصها؟

فاجاب القس بولس والاضطراب بادٍ في وجهه وفي صوته ·— كأني سمعت قبلك ذاك الصوت الذي سمعته · سبحانه تعالى وتبارك اسمه

— اذا تركنا مريم تذهب فريسة المعاصي والمنكرات · اذا تركناها تموت في موبقات هذه المدينة فلا النذور تنفعنا يا ابني ولا نسكنا يرضي الله

احب القس بولس ان يسأل محدثه سوءالاً فتردد خوفاً من استماع الجواب · كأنه تحقق امراً ودّ ألاّ يكون · فآثر السكوت · ثم قال — واين انت مقيم ؟

— خارج القاهرة · قرب الاهرام · فلقد تعرفت باحد الفلاحين في السكة وانا قادم من بورت سعيد وهو يسكن هناك · فاستأجرت منه بيتاً بل كوخاً — قرب بيته · لان اقامتي خارج المدينة اوفق لقصدي · لا اريد

ان يعلم احد بما انا فاعل · وبالاخص الجرائد · فتفسد سعينا ·

— حسن · حسن · ولكني اعتذر اليك الآن · عليّ درس القضية · فهل لك ان تنتظرني هنا قليلاً فنستأنف الحديث ونفكر بطريقة نتخذها ·

— كما تريد ·

— هذه مجلة اسلامية فيها مقالات تسلي وتضحك · ساعود قريباً

وخرج القس بولس من غرفته مضطرب البال · اسير الهواجس · تتقاذفه من تقادير الزمان عواصف الهول المجهول · وذهب تواً لا الى المدرسة بل الى الكنيسة فجثا امام المذبح يصلي · ثم تلا المزمور الحادي والخمسين — ارحمني يا رب حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيّ · ألهمني ربي سواء السبيل · اذا كان ما اظنه الواقع فاهدني الطريق المثلى لاخلصها واخلص نفسي · مدني بنفحات من لدنك فاقوى عَلَى الشدة · مدني بنورك الازلي فينير ظلمات سري المهلكة · وسجد مراراً يقبل الارض · ولبث هناك خاشعاً ضارعاً متبحراً متأملاً · ثم خرج من الكنيسة ثابت الجأش موطد العزم وقد زال بعض اضطرابه ·

وبينا هو عائد الى غرفته لاقاه في رواق المدرسة خادم فسلمه كتاب من مدير البوليص يستدعيه فيه الى الادارة · فلما اجتمع باخيه القس جبرائيل اخبره انه كان قد باشر البحث عن غصن البان وان رغبته بانقاذها لاشد من رغبته · واطلعه عَلَى كتاب مدير البوليص · ثم قال — اما اذا اهتديت الى منزلها فلا اظنها تقابلني · لقد حاولت مقابلتها مراراً فأبت مكابرة · وحضرتكم

تعلمون انني معروف في البلد · ولا يمكنني ان اتجول في كل انحائها واحيائها· وقد تكون غصن البان —

فقاطعه القس جبرائيل قائلاً — اذا اهتديت الى البيت فانا اقصده · انا اسعى اليها · انا اقابلها · فقد جئت من فلسطين لهذه الغاية · وهل لك ان ترافقني الان اهديك الى كوخي · فتجيئني بعد البحث بالخبر اليقين ·

— نعم · نعم · ولكني لا اكتمك يا ابتي ان في عملك هذا قد تنقذ نفسين وقد تهلك نفسين ·

— مشيئة الله · لتكمل مشيئة الله·

وخرج الراهبان من المدينة اصيل ذاك النهار وركبا بعد ان وصلا الى الجيزة « الترامواي » ساكتين لم يفه احدهما بكلمة واحدة فنزلا قرب الهرم الكبير ومشيا في طريق بين سهول صفراء وخضراء قرب نصف ساعة واذا هما امام بيت من اللبن حقير ·

— هذا منزلي اليوم وهذه الطريق اليه · لا اظنك تضلها سانتظرك مساء غد هنا · لا احب التردد الى المدينة ولا الى الدير كثيراً · فاستحلفك بالله ألاّ تتخلف ·

— بل اكون عندك غداً بعد الظهر · او عند الغروب · اظن ادارة البوليس قد اهتدت الى منزل الفتاة · وقبل الوداع يا ابتي أرجوك ان تخبرني —

ولم يكمل القس بولس الجملة · بل وقف متردداً ·

— قل ما تريد ·

— قلت ان ام الفتاة اوصتك بها · فهل تبوح لي باسمها ·

— وما المانع · اسمها يا ابتي ساره ·

— ساره · ساره ·

ورفع القس بولس يده يحجب بها وجهه

— ساوافيك غداً هنا ·

وعاد الى البلد ومراجل الحيرة واليقين تغلي في فوءاده يخاطب نفسه قائلاً — ساره · ساره · ما اكثر السارات في فلسطين · قد تكون هي وقد لا تكون · قد تكون وقد لا تكون · واذا كانت هي بعينها ؟ ربي ! أيفرح الآباء بلقاء بنيهم وأحزن عند لقاء بنتي · مريم بنتي · امكن ذلك ؟ ولم اهتمام القس جبرائيل لها ؟ قد كان القس جبرائيل في الدير لما خرجت منه وهجرت تلك الامرأة · فعادت من كفركنا الى الناصرة · اذكر ذلك · لا · لا · مستحيل · مستحيل · عشرين سنة يُدفن سري فتبعثه اليوم حياً ايها الرب لتطهرني · لتهلكني في الدنيا كي لا اهلك في الآخرة · لما احببت تلك الامرأة واستسلمت الى عاطفة هي فينا منك يا ربي — عاطفة الحب المقدسة فانت سبحانك الحب — أكان ذلك لكي تتعذب الام ويعيش الاب كاللص · وتشقى الابنة شقاء اليتيمة البغي ؟ اذا هربت من العار المحيق الان بي أمكن ان اهرب من وجهك ؟ اذا قتلت نفسي أمكن ان اقتل اثمي ؟ سيفتضح غداً امري · سيدهش الناس غداً سري · فيلعنني القاصي والداني وامسي طريداً شريداً منبوذاً ذميماً ··· وقد لا يكون مما اظن شيء · ساره

ما اكثر السارات في بلادنا . وما اكثر اليتامى وما اكثر المريمات ! فلماذا تعذب نفسك بالاوهام ايها الرجل ؟ واذا تحققت الاوهام . آه يا ربي . غصن البان ابنة القس بولس عمون الواعظ الشهير الحامل عَلَى الرقص والرواقص والتهتك والفسق والخلاعة . اواه ! ما هذا الحساب الذي تناقشنيه يا رب ! — بنتي طالما حننت شوقاً اليها . طالما اسفت لان امها حملتها رضيعاً الى الدير . طالما ندمت عَلَى فعلتي . بنتي كم ليلة سهرت متهجداً اسأل الله ان يجمعني بكِ . وها اني الان قريب منكِ — قريب منك ؟ ومن يعلم . ألا أنني قريب منكِ ارتجف كالقصبة في الريح العاصفة . ومما اخاف يا ترى ؟ أأخشاكِ بنتي ؟ أأخشى ملقاكِ ؟ وما الذي يجعلني مخالفاً الآباء ؟ مخالفاً النواميس البشرية الالهية في الحب ان النذور والترهب والتنسك والتعبد لطرق ضيقة كلها . مظلمة . باردة . اذا قوبلت بطريقك ايها الحب الالهي . فاذا عدت اليك ، اذا سجدت امامك ، اذا اقتبلت الخزي والعار من اجلك فقليل ذلك قليل . وساقتبله قانعاً ، شاكراً ، راضياً ، تكفيراً عن ذنبي يا ساره بل عن ذنوبي . غصن البان الراقصة الخاطئة الساقطة ابنتي . يا للحبور ويا للسرور . ساضمها غداً الى قلبي . ساضمها غداً الى قلبي . ساقبلك ايتها الخطيئة المتجسدة كما قبلك السيد في قديم الزمان . سأبني لكِ بيتاً في فوءادي . ساقضي الليالي ساجداً في نور شمعتك الضئيل امام الرب الهي . ارحمني يا الله حسب رحمتك وحسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ .

— الفصل الحادي والعشرون —

في الفضيحة نوع من الشهرة يلبس فريق من الناس ثوبها الاصغر عَلَى علاته شفافاً بالياً . فيبدون سوءة النفس وان واروا سوءة الجسد . كيف لا وهم يبذلون في اعلان انفسهم الاموال الطائلة والفضيحة تعلنهم مجاناً . ففي اوربا واميركا اذا تناولت صحف الاخبار اسرار ممثلة فهتكتها تزداد تلك الممثلة شهرة فيروج سوقها ويتسابق المدراء الى المتاجرة بها وبفنها . فتنتقل من بلاد الى اخرى ومن ملهى الى آخر والاقبال حليفها والاموال بين يديها تتصرف بها كيف شاءت اميالها واهواءها . اما في الشرق حيث لا تفصل بين المرء ومهنته بين آدابه وفنه فالخزي والفشل والعار تحيق به في الحالين

سقطت غصن البان في القاهرة فنسي الناس رقصها وأفسدت طلاسم سحرها فجفاها كل اصحابها ما سوى سر همت باشا . ولم يجئها كلمة تعزية او تشجيع من احد سوى ذاك الكتاب من الحاج محيي الدين فودت غصن البان ان تغمسه بالسم وتلقمه اياه

وحيدة . طريدة . منبوذة . فماذا عساها تصنع ؟ الى اين تذهب ؟ كيف تتجه الان بآمالها ؟ فكرت في امرها ثم فكرت وهي تظهر في اشد شداتها هذه من الضعف قوة . فوطنت النفس عَلَى ان تقيم في القاهرة ريثما تسكن العواصف وتهدأ الرياح . ونقلت من قلب البلد الى احدى زواياها

المظلمة هرباً من الشماتة بل هرباً ممن يعرفونها ولا يحفلون بها . فهي تطيق عذاب الوحدة والخمول ولا تطيق ظلم الشهرة والخذل .

ولكن اثنين بحثا عنها القس بولص عمون وسر همت باشا واهتديا الى منزلها في مصر العتيقة . وسر همت سعى اليها ذات يوم يعزيها ويطيب نفسها ويعرض عليها المال ويرجوها ان تقبل ضيافته الى ان تفرج كربتها وييسر الله امرها .

— البيت في الجزيرة مفروش مهجور تقيمين فيه وخدمك .

— لا وحياتك لا . ارجوك ألاّ تحدثني بالبيوت . اعذرني يا صديقي . اعفني . صرت اخشى المعروف كما اخشى الافاعي . صرت اخشى المكارم كما اخشى الوحوش الضارية .

— غصن البان !

— ارقص لك يا سر همت وابسطك . ولكني لست آلة طرب تتناولها الناس فيضربون عليها ويعبثون بها ويسكرون علَى انغامها . لا . لا . لست كمنجة توءجر او تُعار او تُشترى . وهب اني آلة طرب يا سر همت ياصديقي فقد تقطعت اوتاري . تقطعت كلها .

— ما انصفتِ والله ما انصفتِ . اسأت فهمي . اهنتني . أسألتك يا غصن البان شيئاً من اشياء الحب مرة ? وهل كنت ممن يحومون حولك ابتغاء هبة من هبات جسدك ?

— لذلك اخشاك .

— انا صديقك . وقد قلت مراراً انك لا تحبينني . ولكني ما من مرة شككت في انك تعتبريني وتكرميني كما اعتبرك واكرمك . أجل يا اختي مواهبك . واريد ان اعزز فنك . فنك يكبر علَى ذي البلاد . مستقبلك يا غصن البان في اوربا — في باريس في لندرا في فيانا في برلين . ولقد فكرت في امرك كثيراً . اسمعي . لا تنظري اليّ عاشقاً أو صديقاً أو محباً أو ولياً . أكلمك الان كما يكلمك مدير من مدراء التياترات . تعلمين ان اصحابي ومعارفي في لندرا كثيرون . وبينهم ذوو النفوذ في عالم التمثيل هنالك . سأسافر هذا الصيف الى لندرا وانوّه بك هناك . اطبل وازمر لك . انتِ الان راقصة شرقية شهيرة . ظهرتِ في مصر وفزتِ فيها فوزاً مبيناً رغم انوف البغاة والسعاة والحساد . ساخابر احد المدراء بشأنك هناك . فتظهرين ان شاء الله في لندرا كالشهيرات من الرواقص لا كالمبتدئات واني واثق بفوزي . دعيني اسعى من اجلك .

— لا . لا . لا اريد ان يسعى أحد من اجلي . سأسعى لنفسي

— ان ثقتك هذه بنفسك لجميلة . وجميل آباوءك . سأسعى اذاً من أجل الفن فنك لا من أجلك . وان شئتِ ان تشاركيني في الارباح فلا اعف عنها .

— اذا كنت ترى في رقصي ما ينبغي ان يراه الاوربيون ، واذا كنت تعاملني كما يعاملني وكيلي أو مديري ، واذا كنت تقبل مني جزءاً من ايرادي ، واذا ....

— واذا · واذا · واذا · كفاك من ذي الاذا بل الاذى فقد اذيتني جداً ·
أعمل كما تشائين ·

— وانا قابلة

— وسأسافر هذا الصيف الى لندرا وعساني افوز بما ابتغيه فأكتب اليك كي تسافري أو اعود بنفسي فاستصحبك · انا الان وكيلك ومدبرك · ولكن اقامتك هنا يا اختي ، يا صديقتي — وها انك لم تزالي تسعلين — بالله ان تقبلي ضيافتي · البيت في الجيزة عَلَى شاطىء النيل جميل ·

— لا تحدثني بالبيوت · لا تحدثني بالضيافة · انا راضية بما انا فيه الان · هذا البيت يكفيني · ومرجانة والحمد لله ومحمود لا يهجرانني

— تبصري بما اقول · البيت في الجيزة مهجور انقلي اليه تقيمين فيه وخادماك · واذا احببت ان تدفعي اجرته اقبلها منك عندما تشتهرين بلندرا

— اعذرني · افضل ان ابقى هنا · سأقيم في هذا الحي ، في هذا البيت الى ان يجيئني خبر منك · عزمت عزمي ولا اتحول عنه

— كما تريدين · أو ترفضين عيادة طبيبي يعالج سعالك ؟

— لا ·

— حسن · بارك الله فيك

— أو ترفضين عزيمتي الليلة الى العشآء ؟

— اين ؟

— في الكنتيننتال · لا أغير عاداتي ولا ينبغي لك ان تغيري عاداتك ·

أحب ان يراك الناس معي · أفتخر بذلك · لاني كما تعلمين احتقر هوءلاء الناس · كانوا أمس يهتفون لك كالمجانين · واليوم ينبحون عليك كالكلاب عليهم لعنات الله وأبليس · قومي بنا · لا يهمني اليوم بالقاهرة غيرك

— والموميات ·

— والموميات · عليك نور

— انتظر ريثما ألبس ثيابي ·

— ولتكن أحسن ما عندك وأجمل ·

وخرجت غصن البان من غرفتها الخصوصية بعد نصف ساعة وقد ارتدت ثوباً من الحرير الرمادي ، انيق الزي ، بسيط التخريج ، وقبعة مخمل من لونه صغيرة شبيهة بالعمامة في مقدمها ريشة بيضاء تبدو فوق جبينها البراق كطائر من الحمام أسف عَلَى المآء ·

— وما هذه الذخيرة يا غصن البان ؟

— ألم ترها قبل اليوم ؟ هي سلواي الوحيدة ألبسها في ايامي السوداء فتسليني ، تشجعني ، تعزيني · امش ولا تحفل بها ·

— بل شوقتني الى الاطلاع عَلَى سرها ·

— سرها هنا — واشارت الى قلبها — امش يا سر همت ولا تكن ···

— فضولياً · ممنون ، ممنون · تفضلي ·

وخرج واياها من ذاك البيت الحقير فوقف محمود عند الباب ويده عَلَى رأسه · واجتازا زقاقاً لا نور فيه غير انوار القناديل الضئيلة المعلقة فوق

الابواب · فترى المارين اشباحهم ولا تنير سبيلهم · والرواشن فوق رؤوسهم الى الجانبين تكاد تقع بعضها عَلَى بعض · ولما وصلا الى الشارع العمومي ركبا عربة سارت بهما الى الكنتيننتال ·

وبعد العشآء ونزهة في الجيزة شيعها سر همت الى بيتها قرب نصف الليل وودعها عند الباب · وكان محمود لم يزل جالساً هناك ينتظر سيدته · فلما دخلت باب الرواق استفاقت مرجانة فجاءت تفرك عينيها وتقول

— أتريدين حاجة مني ؟

— لا يا مرجانة · روحي نامي ·

وصعدت غصن البان الى غرفتها منقبضة النفس مضطربة البال تفكر بسر همت ووعوده وتقول —

ومن يصدق منهم يا ترى ؟ خدعوني كلهم خدعـوني · ولم يزالوا يحاولون · ولكني لست اليوم تلك الساذجة · بيت عَلَى شاطئ النيل — شهرة في لندرا — وكيلي — صديقي — ما شاء الله ! أو تلام الراقصة الخاملة المسكينة الضعيفة اذا خُدعت وابتذلت وامتهنت · يتحجر قلبها وتفسد اخلاقها وتتجعد بشرتها فتتاجر بجسدها كما يتاجر محيي الدين بمكارمه · وسر همت ايضاً · سر همت مثله ولا شك · أتلام تلك المسكينة يا ترى اذا قبلت حب من يخطب ودها كما لو كان حقها دون ان تبادله حباً · يخدعها فتخدعه · يهينها فتهينه · يضحك منها فتضحك منه · والناس يحتقرونها ويزدرونها ولا يدركون الاسباب التي شوّهت نفسها وقتلت فيها الصدق والطهر والوفاء ·

ولا يحفلون بتلك الاسباب وان ادركوها ·

خلعت برنيطتها ثم نزعت السلسلة من عنقها فرفعت الذخيرة الى فمها تقبلها

وبينا هي واقفة امام المرآة تناجي تلك الذخيرة كان رجل قادماً في ذاك الزقاق يعد الى يمينه الابواب · فوصل الى المقصود منها واذا بمحمود جالس عَلَى الاسكفة تحت القنديل وقد بدت اسنانه كالعاج المنقى يعد سبحته ويتمتم متغنياً ببعض الاشعار عَلَى نغمات عود في الحارة المجاورة

— هذا بيت غصن البان ؟

— نعم ·

فهمَّ الرجل بالدخول فاستوقفه محمود قائلاً — حاجتك ايه ؟

فدخل الرجل ولم يحفل به فلحقه العبد وامسكه بجبته

— تريد ايه يا شيخ ؟

فتفلت الرجل منه وضربه عَلَى وجهه ضربة اطفأت نور عينيه فوقع الى الارض · فتركه يئن ويلهث ويسب وتقدم مسرعاً فاذا هو في رواق صغير فيه نوفرة متهدمة جافة بل نائمة لا صوت لها · والى يمينه باب ودرج يوصل الى الدور الثاني · فنظر الرجل الى الشبابيك فيه فلم يرَ نوراً الا في واحد منها · فصعد الدرج ومحمود وراءه ينادي — يا مرجانة ، يا مرجانة !

وذهب تواً الى الغرفة المنورة فوجد الباب مفتوحاً وغصن البان مدبرة تخلع ثيابها · فلما رأت الخيال الاسود منعكساً امامها في المرآة ذعرت وصاحت مستجيرة · وسارعت الى الباب تقفله · ثم نادت من الشباك ·

— يا محمود ، يا مرجانة ، يا مرجانة ، يا محمود !!

فطمأنها الرجل من الخارج قائلاً

— لا تخافي يا بنتي · ألبسي ثيابك يا مريم وافتحي ·

— يا محمود · يا مرجانة · دهتكم داهية · من الغريب الواقف في الباب ؟

فجاء محمود ويده على عينه يصيح ويتوعد الغريب

— يا بنتي يا مريم ، لا تخافي · انا القس جبرائيل · صديقك القس جبرائيل مبارك · ألبسي ثيابك وافتحي الباب ·

فسمع القس جبرائيل غصن البان تهمس اسمه همساً اشد من الصياح وساد داخل الغرفة سكوت عميق قصير · ثم قالت تخاطب محموداً

— دع الرجل يا محمود · رح نم ·

وبعد هنيهة فتحت الباب وقد ارتدت غلالة خضراء · ووقفت تحت العتبة كالتمثال لا تبدي حراكاً · نظرت الى الراهب نظرة جامدة باردة ثم قالت

— وماذا تبتغي مني اليوم ؟

— ما ابتغيه منذ خمس سنوات ولم ازل ابتغيه ·

— وكانت بغيتك قريبة منك فلم تظفر بها فكيف اذا اصبحت بعيدة عنك بعد السماء من الارض ؟

— البعيد من الله أقرب اليه من القريب منه

— اتركني اذاً قريبة من الله ·

ولاح في عينيها بريق الشقاء المستهتر وهي تبتسم ابتسامة التهكم · في السنين التي قضتها نائية عن وصيها ومرشدها — خارج السجن — في نعيم الحياة وبوءسها نشأ فيها خلق الازدراء والتفوق فكان يخفي في بعض الاحيان فطرتها الطيبة · زالت سذاجتها كما يزول لون الزهرة وشذاها اذا قطفت وعُرضت للشمس ، ولكن تلك الغريزة الحميدة كمنت في قلبها كما تكمن في الزهرة بذور الحياة الخالدة · والخلق المكتسب فيها — خلق الغواني والممثلات — منشأ الغرور والتفوق — خلق من يقفن كل ليلة امام الناس فتسكرهن ضجات الاستحسان والاعجاب — ذاك الخلق الانيق الباهر الكذوب خانها تلك الآونة ولم تكن لتستطيع ان تخفي ما جاش في صدرها من جيشان الغم والاسى · فلما اجابت القس جبرائيل الجواب الذي ظنته قاطعاً مفحماً عبس بها واجابها قائلاً

— ما جئت امازحك ·

فارتعدت فرائصها وتساقطت منها حلى الغرور والتصنع كما تتساقط من الاشجار اثمارها المتهرئة · فوقفت لا كغصن البان امام احد مريديها معتزة شافنة بل كمريم الناصرية امام الله صاغرة خاشعة · نظرة من نظرات القسيس القاسية أحيت فيها حقيقة حالها · كأنه تناول الوردة البالية فنفخ بها فتطايرت تبلاتها وبدت في قلبها العاري بذور الحقيقة الرائعة — بذور الحياة الطاهرة · فمدت غصن البان يدها الى الراهب كأنها تقول — خذ ما تبقى

في قلبي وازرعه حيث شئت ·

— ما جئت امازحك ·

ثم قال دون ان يقترب منها — تعالي معي ·

— الى اين ؟

— الى حيث اشاء ·

— سيدي القس جبرائيل ·

— ولا كلمة · هاتي يدك · ومدّ يده اليها

— لي كلمة واحدة اقولها · ادخل يا مولاي · ادخل بيتي وان كان لا يليق بك ·

واخذت يده فادخلته غرفتها واجلسته عَلَى الديوان امام سريرها · فاعترت الراهب هزة حين شاهد وجهها في نور القنديل · سبحانك اللهمّ · أتكذب المآثم ، أتخطىء الدعارة ؟ هذه النضارة وهذا الرونق في وجهها · لقد زادتها السنون جمالاً · وليس في عينيها ولا في فمها أثر من آثار الخطيئة · الا ان نظراتها ولهجتها في بعض الاحايين كانت تزعجه ·

— أجئت تنقذني مرة ثانية يا مولاي ؟ هل تعرف مَن انا الان ؟ لما هربت واياك الى طبريا كنت بنتاً جنيَ عليها فصارت اماً · اماً حزينة · ثم فررت من تلك البلاد ومنك هاربة · فخضت عباب الحياة راغبة طامحة مستهترة · نسيت ولدي ونسيتك الا في اوقات اا — نسيتكَ ونسيت قديم بلائي · قاتلت اهوائي واسترسلت في اهوائي · مددت يدي الى الثمار

المحرمة الثمار التي اشتهتها نفسي فقال الناس اني راقصة بغي · قاتلت من حاول هتك عرضي ممن يكرههم قلبي فغلبوني · لقيت منهم الويل والبلاء · وقال الناس · هذا الترفع كذب وهذا التمنع صاغته حيل النسآء ! رأوني ساعة استهتاري ولم يروني في ساعات عذابي · رأوني راقصة بغياً · ولم يروا ما في قلبي من الاماني العالية والمطامع الشريفة · فكرهت نفسي الرجال وطردت من قلبي الحب وذكراه · الا ان زوايا هذا القلب الكسير — في زواياه المظلمة الباردة — شيئاً واحداً اعزه واقدسه واهتدي به · شيئاً واحداً يشفع بي امامك وامام الله · ابني القس جبرائيل · مولاي · منقذي · لا تنظر اليّ غضباً · عبوساً · اخاف هاته النظرات · ترجفني كلماتك · سامحني · ارحمني · ارثِ لحالي ·

خرّت غصن البان امامه جاثية وطفقت تقبل يديه وتنظر اليه تارة خاشعة حزينة وتارة بهيجة غانجة · نفس مريم في قلب غصن البان · قلب غصن البان في نفس مريم · انما هذه الامرأة التي خرّت امام القس جبرائيل جاثية فاحزنته كلماتها · وازعجته حركاتها · وعذبته منها تلك النظرات المريبة · وارتعشت جوارحه من قبلاتها الحارّة · فابعدها عنه قائلاً · انهضي انهضي · وسيري معي ·

— لا · لا · اليك عني · دعني في بلائي · في وحدتي — في وحشتي · ان يدك لا تصل اليّ لتنقذني ثانية · واذا حاولت ذلك قد تسقط معي · سر في سبيلك · ودعني في شقائي ·

— اني لا اعرف ما في قلبك وما ليس في قلبك امشي معي ·

— مستحيل · مستحيل ·

— امشي قدامي

واخذها بيدها فتفلتت منه نافرة حانقة ·

— البلاء المحيق اليوم بي خير من القساوة التي تمد الي يدها · الشقاء المكتنفني خير من تبرد كلماتك ·

— السعادة تناديك وتنتظر قدومك · امشي معي ·

— ولكن رسول السعادة لا يكون ظالماً قاسياً ·

— مخطئة انت

— برهانك · برهانك اني مخطئة · أنظرت الى ما في اعماق قلبي وبششت له · أأريك ما لم ازل اقدسه فلا تحفل به ؟

— ومن قال لك ذلك يا مريم ؟ ان اوهامك باطلة · انظري الي · تقدمي مني · أأسألك عن هذه الذخيرة وهي بادية لناظري · عزيزة عندي كريمة مقدسة ·

واخذ الذخيرة يقبلها ويقول في نفسه — رحمة الله عليك يا ساره · فلاحت اذ ذاك في وجه غصن البان ابتسامة السرور والرضى وسكتت هنيهة · ثم اخذت يديه بيديها وقالت

— لا تقساني · لا تظلمني · لا تعاملني كمن ظفر بالحياة فاذلها · عاملني كمن يحب الحياة وان أذلته · مولاي القس جبرائيل · انا رهينة اشارتك ·

انا خاتم في بنصرك · ولكني لا اجسر اليوم ان اسألك ما سألتكه مرة · لقد افسد الخبر سذاجتي · فصرت اخشى ما اعلم وما اجهل · انت تعرف ما اريد · انت تدرك بغيتي القصوى · فقد حفظتها مقدسة هذه السنوات كلها · وكنت في نعيم الحياة شقية حزينة · كنت ابكي وانتحب حين تعتريني لذكراه هزة الشوق · ولدي · ولدي · ولدي ·

— سيري معي فيكون لك ما تبتغين · السعادة تناديك وتنتظر قدومك

— الى حيث شئت · الى حيث تريد · حتى الى الجحيم ·

— نحن الان في الجحيم · اسرعي · اسرعي نخرج منه ·

— الان ؟

— الان · هذه الساعة · هذه الدقيقة ·

— وبيتي وامتعتي و—

— غداً يجيء من يعتني بذلك · انفضي الان يدك من كل شيء وسيري معي الى بيتي · دعي خادمتك نائمة · وخادمك · ألبسي ما يقيك هواء الليل البارد — اقفلي الباب · هاتي المفتاح ·

— بارك الله فيك

ومشت والقس جبرائيل الى منعطف الجادة فاذا بعربة تنتظر هناك · فركبت واياه وراح الحوذي يحث خيله الى الجيزة ومنها الى ناحية الاهرام · وبعد سير ساعة وما يزيد وقفت العربة فترجل القس جبرائيل وصرف الحوذي ودخل وغصن البان في بستان من النخيل ماشيين مسرعين جنباً الى

— الى اين يا قس جبرائيل ؟

— الى بيتي ·

— ويلي هذه الظلمة مخيفة مرعبة ·

اجتازا في ذاك البستان الى الصحراء فاصبحا بعيدين عن الحقول والسبل فيها · ضلّ القس جبرائيل الطريق تاه ورفيقته في البادية · في بحر من الرمال وبحر من الظلمة · مشيا ساعة فاعياهما المشي · فرمت غصن البان بنفسها عَلَى الرمل تئن من التعب والخوف ·

— اين بيتك يا قس جبرائيل · ربي ! ما عساك تصنع ؟ الى اين · آه ما ألطف هذا الهواء — دعني استريح قليلاً · اجلس تسترح · اجلس هنا الى جانبي · هواء الليل منعش وظلمة الليل اذا كنت قربي لا تخيفني

وقف القس جبرائيل وقد احس من نفسه وهناً — ينظر غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً يسأل الله الهداية ولكن البادية كلها طريق والليل كله طريق اخرى ولا حاجز في الطريقين ولا حد لهما ·

— انهضي يا بنتي · امشي امشي · الله معنا · ها قد تراءت لي ظلمة اشد ظلاماً من الليل واقفة كالطود هناك · هذا الهرم · لله ! ما اقرب الطريق الى الجحيم وما ابعدها منه · ما اقصرها ذهاباً وما اطولها اياباً

واستأنف ورفيقته السرى ثم وقف فجأة يسند رأسه بيديه من صداع بل دوار اصابه ·

— ما بالك يا قس جبرائيل ؟ لماذا لا تجلس قليلاً فتستريح · دعنا ننتظر

هنا ريثما يطلع الفجر · النوم عَلَى الرمل تحت السماء لذيذ ·

— امشي يا بنتي امشي · هذا الهرم قد اهتدينا الى الطريق وقريباً نصل الى البيت ·

وهبّ اذ ذاك الهواء البارد رسول الفجر فجعل يصفر في نخاريب حجارة الهرم فيستحيل صفيره صياحاً بشرياً وعويلاً · فخيل الى القس جبرائيل لما اعتراه من العيآء والدوار أن اناساً هناك يقهقهون ويضحكون منه بل سمع اصواتاً تقول

— صفقوا للناسك ! قد فاز بقوت قلبه

— حيوا الناسك وعروسه !

— خذوا الدفوف واضربوا وارقصوا !

وكان صدى العويل والصفير يتراجع في هبوب الرياح · فسمع الراهب تلك الاصوات حول الهرم كأنها اصوات خارجة منه ·

— لو أحبها لرحمها · لتركها تنعم في جحيمها

— لو أحبها لعاش واياها هناك

— لو أحبها لقتلها ·

— تبارك ضلاله ! وتباركت اوهامها !

— خذوا الدفوف واضربوا وارقصوا ···

هدأت الريح قليلاً ولم يهدأ ما اثارته في قلب القس جبرائيل من الهواجس والاوهام · فقبض عَلَى يد غصن البان وقد تصوّر انها تحاول الفرار منه واسرع

في مشيه · لقد سمع اصواتاً لم تسمعها ، ولكنها أحست باضطرابه وسمعت تنهداته ، وكادت نار يده تحرق معصمها

— ما بالك يا قس جبرائيل ؟ ما بالك ؟

— لا شيء يزعج يا بنتي ، لا شيء ·

ولكنه كان يسائل نفسه قائلاً

— وما هي يا ترى هذه الاصوات المرعبة ؟ أتضحك الاموات منا ؟ أتنذرني بحبوط مسعاي ؟

— يا قس جبرائيل ···

— وصلنا يا بنتي ، وصلنا ·

وما كاد يقف في باب كوخه حتى تراءى له خيال ابيض حول رأسه هالة من النور · فسمعه يقول

— انا الرحمة · انا المحبة · من يميت نفسه يحييها · ومن يحيي نفساً أخرى يحيي نفسه ·

دخل الى الكوخ يرتعد وجلاً وغصن البان لم تزل في قبضته · فاجلسها عَلَى مرتبة من الخشب فيه واشعل القنديل

— هذا سريرك · نامي يا بنتي · لقد اعياك المشي واراك ترتعدين برداً · نامي قليلاً

ثم خلع جبته وغطاها بها ·

— نامي قليلاً لنقوى عَلَى السفر غداً ·

ثم اطفأ القنديل وخرج من الكوخ · فجلست غصن البان عَلَى تلك المرتبة ورأسها بين يديها تفكر في مصيرها · والقس جبرائيل يتمشى عَلَى الرمل قلقاً معذباً يردد ما اسمعه الوهم من اصوات الليل والقبور ·

— لو أحببتها لتركتها في الجحيم ! لو أحببتها لاقمت واياها هناك · لو أحببتها لقتلتها ! شياطين الجحيم ! أتتبعني لتهزأ بي ، لتسخر مني ، لتضحك من مسعاي · هيهات هيهات ! أواه ، رأسي يلتهب وهواء الفجر لا ينعشني — من أمات نفسه أحياها · من قتل نفسه أحياها · رب الاكوان ! ان نجومك ورمالك لتخفي الصغير والكبير من أسرارك · من أحيى نفساً اخرى احيى نفسه · والنفس اذا عادت اليها حياتها الدنيا عادت الرغبات معها والاهواء والشهوات · كانت مريم ضالة فوجدت · ومن وجدها ؟ من انقذها ؟ من ذا الذي عاد بها الى الحياة — الى مطهر القلوب ؟ انا الفقير اليك يا ربي · فهل ينبغي لي ان اقتل النفس الجديدة فيّ — تلك التي أحييتها ، لك المجد ، بتحقيق آمالي وبتوفيق مسعاي ؟ لم تزل تظن ان الذخيرة مني · مسكينة واهمة · سأكشف لها السر · سأطلعها عليه · فتكرهني لذلك ، تلعنني ، وقد تتفلت من يدي فيخفق مسعاي ثانية · ما العمل ! ما العمل ؟

جلس عَلَى الرمل قبالة الكوخ يتأمل الربع الاخير من القمر وقد ظهر في الافق فوق الرمال يرفع سجفاً من سجوف الظلام · واقبلت طلائع الفجر الاولى تطارد الليل فتميزت الصحراء والسهول وبدت رؤوس النخيل قرب الهرم كأحمال من الرتم حول الاتون · وهب نسيم الفجر فانعش الراهب

وجدد فيه العزم والثبات ·

— سنسافر اليوم · سنسافر اليوم

ورفع رأسه فاذا بغصن البان واقفة في باب الكوخ تنظر اليه ، والقمر ينير وجهها ، والنسيم يداعب شعرها · فنادته بصوت متلجلج مضطرب ودنت منه تخاطبه قائلة

— ظننتك هجرتني · وقد تفعل · من يعلم · اسمع يا قس جبرائيل · احب ان اعرف الى اين ذاهب بي · وما الغاية من سعيك هذا ؟ أتريد ان تنقذني من موبقات المدينة ؟ هذا مستحيل · الموبقات ليست في المدينة بل في قلبي · رح يا سيدي في سبيلك · ودعني اعود الى شقائي ، الى بوءسي ، الى وحدتي — الى جحيمي · لا تقترب مني ادنسك · يدي ملطخة بالاثم · جسمي مدهون بزيوت الفحش والعار · في صدري تحتدم نيران الشهوات · في عينيَّ رماد كان بالامس نار رغباتٍ سماوية · في شعري سم قبلات العشاق والمحبين · لا تقترب مني ادنسك · سر في سبيلك · عُد الى نعيمك · ودعني أعد الى جحيمي ·

— سنسافر اليوم · هذه الساعة ان شئتِ · الى طبريا حيث السعادة تنتظرك · تناديكِ من تلك الارض المقدسة · لا تسترسلي في الاوهام · وطدي ثقتك بالله · لا ترتابيُ ···

— ارتاب في انك صليبي ·

— وستسافرين معي الى طبريا فتلتقين هناك ومن تحبينه ·

— ومن احبه ؟ عساك تحلم بزواجي · انت مخطىء · ليست غصن البان تلك الفتاة مريم التي كنت تعرفها · خاطرك الوداع · ادعو لك بالتوفيق حيث سرت · وحيث حللت ·

وهمت بالذهاب فامسكها القس جبرائيل بيدها واوقفها ·

— اتركني !

— قفي قليلاً · ادخلي · اسمعي كلمتي الاخيرة ·

— لا · لا ·

فجرَّها الى الباب فوقفت هناك متمنعة متمردة ·

— دعني اذهب في سبيلي

— عبثاً تحاولين التفلت من يدي

— اتركني · لا تُكرهني ·

فضغط عَلَى معصميها فصرخت متأوهة وألتوت تحت وجه الناظر الى وجهها كغصن هصرته الرياح · فنهض بها حتى كاد خدها يلامس لحيته ، وهو ينظر اليها بعين لاح فيها وميض الشهوة التي طالما خدعتها فاصبحت بين يديه كالعصفور رماه الصائد ، لا تبدي حراكاً · فحملها الى داخل الكوخ وهي ترتعد برداً وحباً وجزعاً · وما لبثت ان اغمي عليها · فمددها القس جبرائيل عَلَى المرتبة وطفق يفرك يديها ورجليها ويناديها باسمها مطمئناً مطايباً وفي تلك الساعة دخل القس بولس عمون قادماً من البلد · فوقف في الباب والقس جبرائيل مدبر يعالج غصن البان ·

-- المجد لله يا ابنتي ·

فالتفت القس جبرائيل مذعوراً واذ شاهد اخاه القس بولص تنفس الصعداء

-- جئت في وقتك · هذه الابنة مريم ابنتنا · لقد اغمي عليها من شدة التعب · ساعدني لنعيد اليها رشدها · تقدم · افرك رجليها ·

فدنا القس بولص ينظر الى وجهها فشاهد الذخيرة عَلَى صدرها فتأملها فاذا هي بعينها تلك الذخيرة التي اعطاها الى امها ساره يوم كانت حاملاً · فقبلها وقبل مريم هاتفاً ·

-- بنتي ! بنتي ! سبحانك اللهمَّ · ارحمني يا ربي وارحمها ·

جمد الدم في عروق القس جبرائيل ووقف كالشبح بين البنت والراهب محملقاً ·

-- وهل انت الاخ ايلياس ····

-- نعم انا ايلياس البلان · انا هو ·

فصفق القس جبرائيل كفاً عَلَى كف معجباً مبتهجاً · ثم بسط ذراعيه الى القس بولص · فضمه اليه يقبله ويقول

-- غفر الله ذنوبنا أجمعين · لقد سامحتك ساره وغفرت ذنبك وهي عَلَى فراش الموت · يا مريم ، يا مريم · استفيقي يا بنتي ، استفيقي · افرحي تهللي · فها قد ظهر قسم من سعادتك · ها هوذا ابوك ·

-- ابي ابي ·

-- نعم ابوكِ

فايقظتها الدهشة وجلست تنظر الى الراهبين حائرة بائرة

-- ابي اين ابي ؟ من هو ابي ؟

فضمها القس بولص اليه هاتفاً

-- بنتي الحبيبة ، بنتي مريم ! أجثو امام أمك فيك · اسألَ الله ان يغفر ذنبي · رحم الله امك · غفر الله ذنبي ·

وضمها اليه وطفق يقبلها مبتهجاً ، مضطرباً ، باكياً ·

— الفصل الثاني والعشرون —

عَلَى شاطىء البحيرة عند تلحوم امرأة تناهز الاربعين من العمر تحدث أحد النوتيين ، وولد صغير صبوح الوجه أشقر الشعر حاد النظرات أنيق الثياب لا يتجاوز الرابعة من سنه يلعب عَلَى الرمل ويراقب القوارب القادمة من طبريا وسمخ ·

— يا لطيفة ، يا لطيفة · زات السختولا ·

فادارت الامرأة وجهها واذا بالصبي قريب من المآء · فصاحت به مذعورة

— فريد · فريد ! يا ربي · يا مريم العذرا ! وركضت اليه تجذبه بيده وتضربه عليها ·

— قلت لك الف مرة لا تقترب من الموج · قم نرجع الى البيت · ما جآء أحد اليوم ·

فصرخ فريد متأوهاً وجلس عَلَى الرمل يقبض عَلَى رجله بيده كأنها حرقت أو جرحت ·

— عرفت حيلتك · قم يا حبيبي · قم اركب عَلَى ظهري ·

فركب فريد ضاحكاً متشبثاً · وعادت به الى البيت — بيت القس جبرائيل في السهل وهي تغني له —

والدوم ويلي عالدوم
راحت يا حرام الشوم
راحت لكن راح ترجع
راح ترجع صباح اليوم

ولكنها لم تعد لا صباح ذاك اليوم ولا صباح تواليه · فملت لطيفة الانتظار · واشفاقاً عَلَى فريد من الخطر في لعبه قرب المآء لم تجىء به بعدئذٍ الى شاطىء البحيرة ·

— اليوم نطلع الى الربوة ونأخذ العنزة معنا

— والسلة للهندبا أنا اهملها ·

— طيب احمل السلة واركب عَلَى ظهري ·

— اتعب عاضهرك · مباره وزعتيني · سديتي بيدي كتيل ·

— مليح · اركب عَلَى كتفي · عَلَى رقبتي · الله يجيرني منك ·

— امسي يا لطيفه · بكله اغني عاقبرك ·

— واليوم غنِ لي عالدوم · غنِ

فجعل فريد يردد بلثغة الاطفال الجميلة —

عالدوم ويلي عَلَى الدوم
لاهت يا هلام السوم
لاهت لكن لاه تلزع
لاه تلزع صباه اليوم

— يسلم فمك · ومن يرجع يا حبيبي ؟

— الماما ·

— واين هي الماما ؟

— الماما بصل ·

— وانت مشتاق اليها ؟

— كتيل · كتيل ·

— ولما تجيء ماذا تقول لها ؟

— قلا — يا ماما العنب استوى وبطلع معا علكلم وبقطفلا العنقود

— الصليب حولك · الصليب حولك ·

— غني انتِ · غني — وطلعت عالاس الزبل·

وجعلت لطيفة تغني له الاغاني والاهازيج وهي في الحقل تملأُ سلتها من الهندباء وهو يختار من عسيب الغفص اطرى الاغصان ويلقمها العنزة

وفي ذات يوم بينا كان عائداً الى البيت راكباً عَلَى عنق لطيفة يهز رجليه ويغني « عالدوم » رأى قارباً في البحيرة بعيداً فهتف قائلاً

— سختولا · سختولا · زات الماما · زات الماما ·

وظل يلح ويبكي حتى جاءت به لطيفة ذاك اليوم الى « فلهوم » أي كفرناحوم · ولبثت تنتظر قدوم القوارب من طبريا · فجلست واياه عَلَى الشاطىء تجمع له الاصداف تعلله بها · ولما وصل احد القوارب ونزلَ منه بعضُ الافرنج المقيمين في دير بتلك النواحي طفق فريد يبكي · ورمى في

البحيرة غيظاً كل ما جمعته لطيفة من الصدف ·

— لا تحرد يا حبيبي · لا تبكِ · غداً تجيء الماما · قم نرجع اليوم الى البيت ·

وما كادت تجتاز واياه الشاطىء حتى سمعت صوتاً يناديها — يا لطيفة ! يا لطيفة ! فتلفتت ملبية كأنها عرفت صاحب الصوت · واذا بقارب آخر يقل امرأة وراهبين وبضعة صناديق من الامتعة · فعادت تركض والصغير عَلَى ظهرها يحثها من شدة الفرح برجليه · ويصيح

— الماما · الماما ·

ولقد أعد القس جبرائيل مريم لهذه الدهشة المفرحة العظيمة قبل السفر من مصر · فقصّ عليها قصة الطفل منذ سُرق تلك الليلة الى يوم استرجاعه من الشقية ام هيلانة والقائها في السجن · ولولا ولدها ما عادت مريم واياه الى فلسطين ·

ولما اقترب القارب من الشاطىء قال القس جبرائيل يخاطب مريم

— البحيرة التي مشى عليها السيد انما هي ام العجائب · سلبتك ابنك طفلاً رضيعاً فاعادته اليك صبياً بهيجاً · ها هو فريد ابن البحيرة تحمله رفيقتك القديمة لطيفة · اسمعيه يناديك ·

وكان فريد عَلَى الشاطىء يرقص ويشير بيديه منادياً الماما · فلما وطأت امه الثرى ركض اليها باسطاً ذراعيه فتعلق بعنقها يقبلها ويقول — اين كنتِ يا ماما ؟ وهي تقبله وتبكي · جلست عَلَى الرمل وأجلسته في حجرها تحدجه

بنظرها منصتة الى كلماته وسوءالاته لا تدري ما تقول · فاصابها من شدة التهيج والبكآء نوبة سعال دامت بضع دقائق · فاخذ القس جبرائيل الصبي واسعف القس بولس ابنته وسار الجميع تواً الى البيت ·

وفي تلك الليلة نامت مريم تضم ابنها الى صدرها وهي تحس بلذة جديدة بهيجة عجيبة أسكنت جوارحها وضمدت جراح قلبها ·

وفي الصباح باكراً نهض فريد يوقظ أمه ويقول

— ماما ، استوى العنب · اطلعي اقطفلك العنقود ·

فنهضت تداعبه وتلاعبه وتضمه الى صدرها وتقبله · وجاءت به الى فناء البيت تحمله عَلَى ذراعها فأحست من نفسها وهناً ·

— لا استطيع ان احملك يا حبيبي ·

— انا أمسي علكلم ·

— سنطلع الى الكرم يا عمري · تعال قبلني ·

فركض فريد اليها يعانقها ثم قبلها في فمها · فابعدته تقول — لا · لا · قبلني هنا (مشيرة الى خدها) وهنا (مشيرة الى عنقها) ·

ثم ابعدته منها قيد ذراع وهي تنظر اليه بعين كئيبة حزينة ترقرق الدمع فيها ·

ودخلت اذ ذاك لطيفة تحمل طبقاً من القش عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل والقريش ومقلاة فيها بيضات مقلية وسفود من الشواء فألقت الطبق عَلَى طاولة قرب الديوان وهي تخاطب مريم ·

— لا تواخذيني اذا ناديتك حسب العادة القديمة باسمك · لقد سمعت بما كنت فيه من العز بمصر وفرحت كثيراً ولكنك دائماً تلك المريم عندي · سبحان من يغير ولا يتغير · أنسيتِ لطيفة العشية التي كانت تلعب واياكِ « البوكر » ? أتذكرين تلك الليالي والفولات ، والازهار التي حرقتها ، والا··

قاطعتها مريم تقول

— لا تذكريني بتلك الايام يا لطيفة ···

— وما بالك تبكين يا بنتي · انتِ أعز من بنتي · أتبكين فرحاً للقآء فريد · يحق لك · لولاي ···

— علمت بفضلك يا لطيفة · وانا شاكرة لكِ ممتنة ·

— واذا غبت يوماً واحداً عن فريد يضيع عقلي ·

واخذت الصغير بين ذراعيها وطفقت تقبله وتردد النكات التي يسر بها

— غنِ للماما يا حبيبي غنِ لها — وطلعت عاراس الجبل ·

فوقف فريد قدام أمه وهو يجول بنظره فرحاً بينها وبين الطابخة ويشير بيديه وبرأسه اشارات لطيفة فتّانة ·

وطلعت عالاس الزبل
اسلف عَلَى البهلا
وسمعت الهمام ينوه
ينوه عَلَى البهلا
قلت لو يا همام

صلي صلاتك ونام ...

صلي صلاتك ونام ...

-- كمل كمل . أنسيتها ؟ راحت ...

-- بلى . بلى . اسكتي

قلت لو يا همام

صلي صلاتك ونام

لاهت امك تسوه

الله يعطيك غيلا .

ونظر الى أمه فرآها تضحك وتمسح بالمنديل عينيها . ثم ركضت اليه فجثت امامه وطوقته بذراعيها تقبله هاتفة

-- ولدي ، حبيبي ، حياتي ، مهجتي ، نور عيني .

ثم تبعده عنها قليلاً فتحدق فيه كأنها تنظر الى شيء عزيز توارى عنها ثم تضمه اليها مسرعة متلهفة كأنها تحميه من حيوان يحاول افتراسه

-- ماما ، قومي نطلع عاكلم .

فاخذته لطيفة وأجلسته عَلَى الكرسي قائلة

-- بعد الفطور يا حبيبي . تقدمي يا بنتي قبل ان يبرد اللحم والبيضات

فجلست مريم الى المائدة تلقم ابنها وتحاول اشحاذ شهيتها بشيء من عسل بلادها وقريشه . ولم تأكل الا قليلاً .

ثم نهضت مستسلمة الى فريد وقد خرج من البيت يجر لطيفة بذيلها .

فحملته عَلَى ظهرها ومشت قدام مريم الى الكرم . فاعترتها في الطريق نوبة سعال شديدة وردّت منها الوجنتين وأخفت هنيهة حدقة عينها .

وبينا هي وولدها ولطيفة في الكرم كان القس جبرائيل والقس بولص يتحدثان بشأنها .

-- لا يجوز ان تقيم هنا .

-- سننقلها الى لبنان بعد ان يتم ما حدثتك به وعليك ان تساعدني . فان في الزواج خلاصها وسعادتها .

-- وهل ابن اخيك راغب ؟

-- بل مصر وملح في ذلك . وقد انبأته برجوعنا وسيجيء من حيفا اليوم او غداً .

-- واذا كانت لا تريد ما نريده لها .

-- لا أشك في انها ترضى بما فيه خيرها . وفي كل حال كنت ناصحاً لها مرشداً مثلي . حبب اليها الزواج . فانه نافع لها ولابنها ولوالده . بل لازم متحتم . هو الحق الذي ليس غير الخير فيه . زواجها بابن اخي عارف يرفع عن الولد ذنباً ليس ذنبه يزيل من حياته ظلمات الغش ولطخة العار . وعارف في هذا العمل يكفر عن اثمه . ومريم تصادف فيه ولا شك زوجاً فاضلاً محباً كريماً عطوفاً حنوناً . لقد هذبه الدهر وعلمته تجارب الايام . لقد أصلح الشاب شأنه .

-- ولكن مريم ...

— هب اني مخطىء في ظني فلست متحولاً عن عزمي . زواجهما لازم ضروري ، متحتم عليهما . ينبغي ان يكون للولد أب معروف فلا يلعنه في مستقبل حياته . ينبغي ان يتزوج عارف بمريم ليغفر الله ذنبه . ولا يهمني عاشت واياه بعدئذٍ أم لم تعش . الحق يا قس بولص حق الله يعلو ولا يعلى عليه . والعدل قبل السعادة . العدل فوق السعادة ...

جلست مريم تحت الدالية تنظر الى السهل المنبسط امامها والى البحيرة الزرقاء الراكدة وقد ظللتها شمس الصباح بظلال الجبال القائمة حولها شرقاً وغرباً . لقد لقيت اباها ، ولقيت ابنها . ولم تكن تتوقع بعد هاته الدهشات المحزنة المبهجة دهشة اخرى . لم تكن تحلم بما يضمره لها القس جبرائيل وبما تكشفه لها مخبآت الزمان .

— وماذا يهمني ابي ؟ اذا جهرت به اذا ادعيته أفضحه . فينبغي ان أنساه اما القس جبرائيل فقد صنع صنعاً جميلاً ليس في امكان بشر ان يكافئه عليه. صحيح . صحيح . ولكني مع ذلك أكرهه . خدعني مرتين . عذبني ليخلصني مما يظنه اثماً فرماني بما هو أشد عذاباً وويلاً . ومرضي من يخلصني منه ؟ جاء بي الى هذه الديار القاصية — الى هذا الغور المهلك ليجمعني بابني . وكان في امكانه ان يستصحبه الى مصر . ان في كل ما يصنعه شيئاً غامضاً خفياً . سرياً يدل على حب الذات والكبرياء والاعتداد بالنفس . يكسر قلوب الناس ليقيم رأيه . يزدري اشياء الغير ليعزز اشياءه . يجر على الناس الويل والبلاء باسم « الحق السماوي » وباسم الله . فينبغي ان أنساه أيضاً . سأشكره

في الآخرة يوم أقف امام الرب الهي . آه ما أمر الحياة ! لقيت والدي فلذة كبدي ولا استطيع ان أفرح بلقائه . لقيت والدي وكأنني لقيت عدوي . ألم يكن عدو أمي ؟ أكنت شقيت يا ترى لولاه ؟ أكنت لقيت من الحياة أمرّها لو انه أحب امي واكرمها فاحتضنتني ورعتني بالتربية . قذف بي الى هذا العالم وفرّ هارباً . جبان رعديد ! لئيم اثيم ! يستحق الذبح ... وأين ابوك انت يا مهجتي ، يا حياتي ! أتجتمع به يا ترى بعد موتي كما اجتمعت امك بك فازدادت حزناً وغماً ؟ معلمي عارف افندي ! ابن الاكابر ! الاديب السري ! ويل الشبان امثالك ... ولكني أحببته فجنى عليّ . أحببته حباً أضحك مني عليه . كنت ساذجة في تلك الايام . وخطيئتي الكبرى انني اذا احببت أحب حباً لا يدرك حدوداً ولا يعرف خداعاً . لو علمت اليوم مقرّه لذهبت اليه وولدي بيد والخنجر باليد الاخرى . شقيت الام فلا يجوز ان يشقى ابنها . لا ، وحياة الله !

بمثل هذه الافكار كانت تزيد نفسها اضطراباً وغمها غماً . ولا ريب ان اشتداد وطأة المرض عليها اظلم فوءادها وحرمها لذة العطف والحنان

— الحياة لعنة في الارض — هذا أحسن ما قاله القس جبرائيل . فالجميل في الحياة انما هو الطعم في شبكة الصائد . اللذات حبائل وأشراك مهلكة . والبعد عن اللذات عذاب لا يطاق . ما العمل اذاً ، ما العمل ؟ الحياة لعنة في الارض .

ولما وصلت الى البيت عائدة من الكرم وولدها سألها ابوها

— لِمَ انتِ مضطربة كئيبة ؟

فلم تجبه · دخلت الى البيت ورمت بنفسها عَلَى الديوان وقد أعياها المشي ، وأظلم وجهها وقلبها ونفسها من التأملات المحزنة · فاقترب منها القس بولس يطايبها ويطمئنها ويمسح بمنديله العرق المتصبب من جبينها

— لا تخافي يا بنتي ·

فقالت عَلَى الفور كأنها تضربه بما تقول

— لست بنتك · لو كنت ابي لما تركتني أشقى ·

— اخطأت يا بنتي وندمت عَلَى خطيئتي

— وما نفع الندم وقد جوزيت انا عَلَى فعلتك · عشرون سنة من البوءس والعذاب والذل تقاضاها الدهر من دمي ولحمي ونفسي وفوءادي لقاء خطيئتك — ثمن اثمك · ما اجمل هذا الدين دينكم ! تقترفون المآثم وتجرون البلاء عَلَى العباد وتملأُون الارض فساداً ثم تلبسون المسح وتذرون الرماد عَلَى روءوسكم · ثم ···

— مريم ، مريم ، بنتي !

ولم يستطع ان يفوه بكلمة اخرى · خنقته العبرات · ولكن مريم لم تحفل به

— اي نعم · تلبسون المسح وتذرون عَلَى روءوسكم الرماد ثم — هللوا · هللوا · ادخلوا مجد ربكم آمين · والله لاذبحنك واذبح ابني واذبح والده لو كان لي أن اراه · وألبس بعد ذلك المسح واذري عَلَى رأسي الرماد واعيش عَلَى الخبز المبلول بالمآء فاموت قديسة وادخل مهللة مجد ربي · اذا كانت

الحياة لعنة في الارض فمجد ربي اضحوكة ذميمة · دعني في شقائي · اتركني · اليك عني ·

وخرجت الى المصطبة قدم الباب فجلست هنالك تسند رأسها بيديها وتتأمل امرها ومصيرها ·

فلحقها القس جبرائيل واخذ يدها بيده فرفعت رأسها حانقة ناقمة ثم أحنته يائسة مستسلمة · فقال يخاطبها

— انهضي يا مريم وادخلي غرفتك تستريحين قليلاً · انهضي الله معك

فمشت واياه نحو الغرفة ·

— ادخلي رضي الله عنك · نامي قليلاً · استلقي عَلَى فراشك لقد اتعبتك النزهة · واطردي من قلبك مثل هذه الافكار التي جرحت بها قلب والدك · اطردي من فكرك كل ما يوءلمك ولا يعينك عَلَى الشفآء من مرضك · نامي يا بنتي قليلاً تستريحي ·

· · · · · ·

ثم جآء يخاطب القس بولس قائلاً

— لا تكلمها بالامر الذي تحدثنا به · دعني اعالجه واعالجها وحدي

—الفصل الثالث والعشرون —

دخل فريد الى البيت راكضاً ينادي الماما · فامسكه القس بولس واجلسه عَلَى ركبته يقبله ويقول

— الماما نائمة الان · ألا تحبني يا ابني ؟

— ومن انت ؟

— انا ابوك ·

فهزّ فريد رأسه مشككاً ثم قال

— لا · لا · عمي القس جبرائيل قلي البابا ساب ظليف

— صحيح يا ابني · واليوم نراه ان شاء الله ·

— اليوم ؟ البابا ؟ البابا كمان ؟

وجعل يصفق بيديه طرباً ·

— اي نعم ·

— ومن اين بزي ؟

— من حيفا ·

— واين هيفا ؟

— حيفا عند البحر ·

— البحر في تلهوم ؟

— لا · لا · البحر بعيد ·

فهزّ فريد رأسه عابساً ·

— لا يزي البابا اليوم ·

وكان الصغير مصيباً في ظنه · لان عارف مبارك سافر من حيفا ذاك النهار الى الناصره فبات في بيته هناك · وعوّل عَلَى ان ينهض باكراً فيركب العربة الى طبريا فيصل الى بيت عمه في الغور قرب الظهر · وليلة كان في بيته بالناصره قصّ عَلَى والديه بعض قصة مريم وابنها واخبرهما بما هو عازم· فسكت ابوه مطرقاً واستشاطت امه غيظاً ·

— جننت يا عارف · والله بالله ! اذا فعلت هذه الفعلة — اذا تزوجت بهذه الفتاة الساقطة لا ترى وجهي في ما بعد · رح اعمل ما تشآء · عمك مجنون · وقد أصبت بعدوى جنونه · ابن مبارك يتزوج براقصة ساقطة ، بل بخادمة من خادمات بيته · يا ربي يا ربي ! أي ذنب اقترفنا ليكون هذا قصاصنا ؟ استحلفك بالله وباجدادك يا عارف ان تقلع عن قصدك — أن تسمع كلمتي — أن تعمل بارادتي · اكراماً لامك — الحزينة · عد الى رشدك · ارجع غداً الى اشغالك بحيفا · اترك هذه الفتاة وشأنها · اتركها لعمك القسيس المجنون · هو يخلصها ببركاته وصلواته

فانتهرها زوجها قائلاً

— اسكتي يا امرأة · اسكتي · في الامر ما لا تدركينه انتِ · القس جبرائيل اعلم مني ومنكِ بما هو حق وما هو باطل · وعارف بعد هذا وذاك

راشد يحسن ادارة شوءونه بنفسه . هو الان ولي امره . رح يا ابني . اعمل ما تشآء وفقك الله !

— وانت ايضاً مجنون . انت ايضاً تريد ان ترمي بابنك الى التهلكة ولا تهمك الفضيحة والعار

فانتهرها زوجها ثانية فخرجت الست هند تسبه وتسب اخاه وتدعو عَلَى ولدها وعليهما بالموت العاجل .

وفي صباح اليوم الثاني لما كان عارف راكباً العربة قاصداً طبريا جآء القس جبرائيل يسأل مريم ان ترافقه في نزهة الى تلحوم ليريها خرائب تلك البلد القديمة . وكان قد سكن جأش مريم ذاك الصباح سكوناً يتلو العواصف أو يتقدمها منذراً بها . فحدثها القسيس في الطريق بما قد يكون اليوم من امرها وكشف لها الاخير من ستور السر المحجوب . فنظرت مريم الى ما وراءه ساكتة باهتة غير حافلة . وبعد ان فكرت قايلاً قالت لمحدثها

— عملت دائماً بما تشآء فلا اقاوم اليوم ارادتك . انني راضية اكراماً لولدي . سأقبله زوجاً لي وان كنت لا استطيع أن اعيش واياه

— بل ستعيشين واياه سعيدة ان شاء الله . عارف يعشقك ولقد ذرف الدموع فرحاً حين اطلعته عَلَى خبرك وبشرته برجوعك

— ولقد كدت أغرق في بحر من دموع العشاق المخادعين . ويا ليتك لم تنقذني منه حية .

— انسي الماضي ماضيك يا مريم . انسي تلك الايام السوداء

فنظرت مريم اليه نظرة حادة محرقة وهتفت قائلة

— الماضي ? ماضيّ ? هو شبح مفزع يمشي امامي . يظلم الافق في ناظري منه . يحبس عني نور الشمس . يقود نفسي الى الهاوية . الماضي يا قس جبرائيل سوس ينخر في عظمي ، نار تتأجج في دمي ، نمل يدب في جسمي . الماضي ? ليتك تعرف كيف تعيش المومسات -- وقد دعيت بمصر مومسة — ليتك تعرف كيف تعيش المومسات وكيف تموت القديسات البارآت . تلبس البائسات الحرير فيظن انهنّ راتعات في بحبوحة من العيش باهرة زاهرة . وان لم يلبسنَ الحرير يمتنَ جوعاً . حريرهنّ مسوحهنّ . والطيوب التي يذرينها عَلَى شعورهنّ وصدورهنّ انما هي رماد التقشف والتقوى . المومسة يا قس جبرائيل انما هي القديسة . تمشي وراء ماضيها الى النار مستشهدة . وانا الان امشي وراء ماضيّ . ومهما كان من مستقبلي فان ما اساق اليه هو هو . لا ينقص بلاوءه ولا يزيد . انت يا قس جبرائيل مخلصي وانت صليبي . قبلتك وحملتك صابرة راضية . ولكني لعنتك مراراً في قلبي ولم ازل اكرهك

فحاول القسيس ان يسكن روعها ويعزيها ببعض كلمات ذاكراً مريم المجدلية فنهضت عن الحجر الذي كانت جالسة عليه في ظل صفصافة قديمة وغيظ التهكم واليأس يحتدم في ناظريها

— اي نعم . مريم المجدلية ! المومسة القديسة . شهيدة الأيمان والغرام والأوهام . وأنا . انا ...

ثم اشارت بيدها باسمة الى سلسبيل من الماء قريباً

— تفضل يا مولاي ، هذا الماء وهذي يدي وهذا شعري· تفضل يامولاي الى الغدير — اظنك اليوم تبارك اكليلي · فتحرمني اكليل الاستشهاد

وضحكت ضحكة اعادت الاثم الى جفنيها واللعنة الى فمها · فاغضى القس جبرائيل عَلَى ما بدا من تغيظها وتجديفها وقام يناعمها ويطايبها وهو عائد واياها الى البيت ·

وبينا هما عائدان كان قد وصل عارف من الناصرة فاستقبلته لطيفة طاهية بيتهم القديمة وفريد الصغير ·

يقال ان الغريزة اصدق من العقل · ولا ريب انها تصح غالباً بين الاباء والبنين · لما شاهد عارف الولد الذي لم يره قط حياته ضمه اليه وسأله عن الماما · وكان الصغير يحدجه بنظرات من نظرات الاطفال المبهمة كأنه يستطلع حقيقة امره · ثم قال وهو يقبل الغريب

— انت البابا ؟

— نعم يا ابني · انا البابا ·

— الماما لاهت تسم الهوا مع عمي القس جبلايل · وتفلت منه اذ شاهد امه وركض يلاقيها ويبشرها بقدوم ابيه وهو يصفق بيديه طرباً

— يا ماما ، يا ماما · زا البابا ، زا البابا !

فوقفت مريم في الباب والدم واقف في عروقها تنظر الى الشاب الذي لم تشاهده منذ خمس سنوات نظرة الغريب القريب ، بل نظرة الهاجر المحب·

فتقدم اليها يقول

— اتسامحيني ؟ أتغفرين لي ؟

فاحنت مريم رأسها ولبثت ساكتة · فمدّ عارف اليها يديه مستغفراً مستعطفاً ·

— سامحيني · أغتفري · اصفحي ·

فبدت عَلَى وجنتيها الدموع كالطل عَلَى الورد وأخذت يده ذاهلة ساكتة واجفة · صافحته اليد منها ولم تصافحه النفس · وليس عارف ممن يشعرون لاول وهلة ببشاشة النفس أو بتهجمها · فظلّ قابضاً عَلَى يدها وتقدم واياها فاجلسها عَلَى الديوان يعتذر اليها ويستغفرها ·

فدبت كلماته في قلب مريم دبيب النار المدخنة في جوانب البيت فادفأته وأظلمته معاً · أحست بحنو طالما تاقت اليه في هذه الايام — حنو صاف لا تمازجه الغايات السافلة ولا يشوهه حب المكارم والجميل — فجاءها كالعاصفة دفعة واحدة فضاقت منه صدراً · عَلَى انه وان كانت قد ضعفت بل ضاعت ثقتها بالناس وصارت تخشى حتى المعروف منهم والاحسان رضيت بما ساقته اليها الاقدار اكراماً لولدها

جلست عَلَى الديوان تنصت الى كلمات عارف ، معلمها السابق ، والد ابنها ، خطيبها الان · ولم تفه بكلمة واحدة · وفي تلك الآونة دخل القس بولس فسلم عَلَى عارف مبارك · فانبرى القس جبرائيل يتمم واجبات التعريف فاضطرب عليه · فاراحه القس بولس من حيرته وتردده قائلاً

— اعرفك بنفسي — انا زوج ساره الراعية التي توفيت في الناصرة منذ خمس سنوات ، والفتاة الجالسة الى جنبك بنتي ·

فبهت عارف لهذا الخبر وشرع يقلب نظره بمريم وبوالدها القسيس

— لا تتعجب من جهري · من لا يخجل من الصدق امام الله لا يخجل منه امام الناس ·

فقاطع القس جبرائيل الحديث قائلاً

— دعونا من هذا الان · لقد اشرقت الشمس — شمس الحب والحق — وازفت الساعة · أترضى يا عارف مريم زوجةً لك ؟

— نعم · نعم ·

— أترضين يا مريم عارفاً زوجاً لكِ ؟

فلم تجب مريم فاعاد القسيس السوءال ·

— أتقبلين عارف مبارك عريساً لكِ ؟

— ولماذا تسألني ؟ ألم ابح لك بسر قلبي · كمل عملك وارحني منك

— سري عنك يا بنتي خففي من روعك · هذي ساعة فرحك · لتكمل مشيئة الله ·

ونادى اذ ذاك أجيره ابا ابرهيم ولطيفة فقال يخاطبهما

— عندنا الآن عرس يا اولادي · كوني انتِ الاشبينة يا لطيفة · وانت يا ابا ابراهيم الاشبين ·

وبدأ القس جبرائيل بالصلاة · وكان فريد الصغير آثناء ذلك واقفاً

الى جنب امه متمسكاً بردائها رصيناً عبوساً حائراً بما هو جارٍ امامه · ولما بارك القسيس اكليل العروسين ركض فريد الى لطيفة يقول

— الخلوف زاع · اسمعيه يمعق · روهي اطعميه · ثم جاء يقول لامه

— اطلعي نطلع علكلم ونأخذ البابا معنا · العنب استوى · وانا اقطفله العنقود ·

فضحك القس جبرائيل معجباً وقال

— خذوا الحقيقة من هوءلاء الصغار · أجل لقد استوى العنب وحان وقت القطاف · ليبارككما الله ليبارككما الله ·

فنظرت اليه مريم نظرة ودَّت لو انها خنجراً في فوءاده

ثم هنأهما القس بولص وودعهما قائلاً

— اذا كنتم تستحيون بي فسأخفي منذ الان وجهي وامري عن الناس واقيم والقس جبرائيل متنسكاً في هذه الديار ·

— لا يا ابي لا · بل يجب ان تقيم معنا — معي انا · لا طاقة لي على فراقك · سامحني ابي ، اغفر لي · لقد اهنتك وجرحت قلبك ساعة كنت متألمة متعذبة · سامحني ·

واخذت يده تقبلها باكية · فقبلها القس بولص ووعدها ان يقيم قربها

— اكراماً لامك واكراماً لكِ يا بنتي · ويا ليتني توفقت في شبابي الى هذه السعادة التي انعم الله بها عليك يا عارف · ليتني الهمت الى مثل شهامتك ومروءتك ووفائك · بارككما الله ومتعكما ·

ثم قالت مريم تخاطب زوجها

— قم بنا نطلع الى الكرم اكراماً لفريد · احمله عَلَى ظهرك · امشِ قدامي عَلَى مهل · لا تسرع فالمشي يتعبني ·

وبينا هم سائرون في البرية جلست تحت صفصافة تستريح وقد اعترتها نوبة سعال شديدة · فسألها زوجها

— أمن زمن تسعلين ؟

— منذ أشهر · ولم تشتد عليَّ الوطأة الا في هذا الشهر ·

— وهل استشرتِ الطبيب ؟

— لا تسل عما يزيد بالامي ·

ثم نهضت مستنشطة تظهر من الضعف قوة ومشت مصعدة حتي وصلت الى الكرم عَلَى رأس الجبل ·

— ما أبدع هذا النهار ، وما اجمل المشاهد حولنا ! تغيب الشمس فتودعا حمائم البحيرة نائحة باكية · ثم تشرق فتستقبلها نائحة باكية · كأنها تدرك ما لا يدركه الانسان من اسرار الحياة وحقائق الوجود · انا بائسة يا عارف وانت قليل الحظ ، سيىء الطالع · عدتَ اليَّ مستعطفاً مستغفراً يوم لا أستحق ان ارى وجهك ولا ان اسمع كلماتك · لقد تدنس جسمي ، وتدنس قلبي ، وتدنست نفسي · آه اواه ! حياتي نغمة من نوح الحمام · حياتي قطرة من دم طائر مذبوح · حياتي شعاع من هذه الشمس الغاربة · شعاع لامس الارض فتبدد نوره · نقطة دم امتزجت بالتراب فاعتراها الفساد ·

اغنية سمعتها آذان البشر فضحكت منها قلوب البشر · راقصة ····

فقاطعها فريد وهو قادم اليها يقول

— ماما · هذا عنقود للبابا ·

— خذه منه · هذا عنقود السعادة · اذا ظل عَلَى الدالية يبلى · واذا قطف لا يدوم · بل هذا الصغير الحبيب عنقود سعادتنا · ويلاه ! لولاه اليوم لكنت سعيدة · لولاه لعرفت ما افعل ، لعرفت مصيري ، لقررت امري ، لانهيت حياتي ·

— ما بالك يا حبيبتي · ولِمَ هذا اليأس ؟ اذا كان مرضك يقلق بالك فمرضك ان شاء الله يزول · غداً اعود بكِ الى حيفا نستشير الطبيب · وان كنتِ لا تحبين الاقامة هناك فاقيم واياكِ حيث تشائين · ننتقل الى لبنان — الى مصر — الى باريس — الى حيث يميل قلبك ·

— قلبي لا يميل الى شيء · كان قلبي نار موقدة فصار رماداً · وبلاد الله في عيني كالغور · وحياتي كالنبع المالح الذي شاهدته اليوم ، الكامن في الادغال تحيط به الدفلى وورق البردي والقصب والشوك · فاذا اخترقتها سالماً تشاهد غديراً بهيجاً مترقرقاً يركض الى البحيرة منشداً نشيد السرور ، فتهتف قائلاً — ما اجمل وجهك في ظلال الدفلى والقصب · وما ابدع صوتك في سكينة الادغال · ولكنك اذا شربت منه تجد مياهه مذقة مالحة

— كفاك من هذه التأملات المحزنة · كفاك من هذه الاوهام · تعالي نشاهد من ذاك المطل مشهداً يزيل الاكدار ويبهج القلوب ·

— اين فريد ؟

ونهضت مريم مذعورة تتلفت منادية ابنها . فاجابها من تحت الدكة ثم صعد الدرجة وجآء راكضاً هاتفاً

— ماما . ماما . عسفول . عسفول .

وكان الولد قد رأى عصفوراً متفلتاً من قضيب نصبه هناك احد الصبيان ولم يزل على جنحه شيء من الدبق فلحقه وأمسكه وجآء والديه يريهما اياه بهجاً طرباً .

— عسفول عسفول . مسكته تحت الهفه .

فتأمله عارف وقال مخاطباً عروسه

— قلبك مثل جنح هذا العصفور . حط على قضيب الصائد ثم تفلت ولم يزل الدبق عليه يمنعه من الطيران . لذلك انت حردة يائسة .

— وما اقل حظ من يمسكني ويغسل جنحي . تعال يا حبيبي نمشي والبابا

— ماما . بكله اغسل العسفول واربطه بخيط .

— براڤو فريد ، براڤو ! لقد رد صغيرنا عليك وأفحمك . اركب على ظهري . هات يديك . مكن رجليك . امشي قدامنا يا حبيبتي فنماشيك . على مهل . على مهل .

ولما وصلوا الى ذاك المشرف العالي بدت البلاد امامهم في حلة باهية حاكتها شمس المغيب فاكسبت مروجها رونقاً وآفاقها اتساعاً . هنا سهل الغوير يزدهي ببساتينه وتترقرق فيه الينابيع ماء طهوراً ، وماء اجاجاً .

وهنالك الى جوانب البحيرة جبال شامخة قائمة كالقلاع على ضفاف البحار ، وسواد احراجها وادغالها يستحيل من نور المغيب ازرقاقاً فاحمراراً فاصفراراً . والبحيرة كالطفل على صدر امه هادئة ساكنة تنصت الى هديل الحمام وتسمع فوق الهديل حفيف اجنحة النسور . وهنالك شمالاً يبدو جبل الهرمل ابيض اللمة يحيي الجبال المتوارية وراء قمة طابور . والشمس فوق الناصرة المحجوبة عمن وقف فوق سهل الغوير تشع باشعتها الصفراء المائتة فتملأ السهول المنورة حزناً وتصفر لفراقها وجوه الربى . وفي هذه السكينة يسمع الواقف على ذاك الجبل طنين اجراس المواشي عائدة الى زرائبها واجراس خيل العربات في الطريق المختبئة تحت جفن الجبل .

فقالت مريم وهي في وسط ذا المشهد أجمل واحزن ما فيه — غروب الشمس غروب الحياة .

ثم ضم فريد صوته الى اصوات الحمام والاجراس سائلاً

— بابا ، اين تلوه الشمس ؟

— تسوح في الارض يا حبيبي .

— وبكله تلزع ؟

— بلى .

— وليس تلوه الليله اذا كانت بدها تلزع بكله . ما تتعب من المسي في الليل ؟

فضحك ابوه وقال مطمئناً

— غداً نعزمها تبيت عندنا ·

فضرب فريد كفاً عَلَى كف هاتفاً

— ايوا · وبكله انام انا والسمس · انا اهب السمس ·

فضمته امه الى صدرها وجعلت تقبله ضاحكة باكية ·

ولما عادت واياه وزوجها الى البيت كان القس بولص والقس جبرائيل ينتظرانهم للعشآء · وكانت لطيفة قد أعدت لهم مائدة فخمة من سمك البحيرة المشوي والمقلي ولحم الضان المطبوخ بالخمر والدجاج المحمر والارز المفلفل والمحاشي والرمان المفروط بالسكر والجبن والعسل وتوابعهما · فقدمت الالوان دفعة واحدة عَلَى طبق كبير من النحاس الابيض الشامي المنقوش وهي تقول

— لو كنت احسن الكتابة يا بنتي مريم لكتبت لكِ لائحة الطعام · تفضلوا ·

ولم يفهم غير مريم هذه الاشارة · فابتسمت واشارت الى لطيفة ان اسكتي · وجلس الجميع عَلَى مساند الى المائدة ولطيفة واقفة تنتظر الاوامر وتقص عليهم بين الفصل والفصل من قصص فريد وعجائب ذكائه ·

وقد كان اصغآء مريم الى هذا الحديث اكثر من اكلها · وبعد العشآء قُدمت القهوة وجاءت لطيفة باركيلة الى سيدها عارف افندي · وخرجت ومريم الى المصطبة قدام الباب تستنشق الهواء · ثم عادت تقول لزوجها — غداً نسافر من هذه الديار · لا اقدر ان اعيش هنا · الوحشة تروعني · والحر

يهلكني · اكاد اختنق ·

— موء كد ، موء كد · سنسافر غداً ·

ودخلت مريم الى غرفتها تخلع ثيابها · ثم جلست امام الشباك تتأمل الظلمات المخيمة عَلَى السهول والجبال · وكان الليل ليل الغور هادئاً خامداً ساكناً لا يحركه من اصوات الارض غير خرير الينابيع التي لا تسمع في النهار وصرير الجنادب الذي لا يتعشق غير الظلمة ولا يتحمس في اناشيده لها الا اذا سكت الليل من شدة الحر منصتاً · وكانت ترى بين الادغال وفي جوانب الربى اقساماً من مجاري المياه تتلألأ كأنها سيوف وحراب امتشقتها العبيد السود ليدفعوا عنها بلية مقبلة · نظرت الى السماء فرأت النجوم تهتز فيها كأنها دراهم في يد بخيل أو ازاهر من النيلوفر في بحيرات يداعبها النسيم

شربت مريم كأساً من يد الليل فزادتها ارقاً وغماً · نظرت من شباكها في وجه هذا الليل الاسود وفي عيونه المتعددة البيضآء الصفراء فهالها جموده وسكوته وارقها منه تلك اليد الممدودة تحمل كأساً اخرى — كأس الذكرى والاسى · وكأنها سمعت تنهداته وهو واقف امامها حزيناً مثلها يقول — تعا لي احملك الى بلاد النسيان · تعالي اسقيك في بيتي غير هذه الكأس — في بيتي عند باب الشمس

أحست مريم بشيء يشتعل في فوءادها ، بل كادت تسمع فيه تأجج النيران · فهتفت صارخة — ليت شعلة من الجحيم تحرق جسدي · جسدي هذا الذي تضن به نفسي عليَّ ·

وراحت الى الباب فاقفلته · ثم عادت تفكر بما جرى لها في فترة من الزمن قصيرة وبما صادفته من اسباب السعادة التي تسعد أية فتاة في غير حالها

— لقيت ابني بعد ان ظننته ميتاً · لقيت ابي فاذا هو اب محب حنون رقيق الشعور كريم السجايا عظيم الخلق · وعاد من قطف زهرة حبي يستر حملي مستغفراً فاعتنق ذنبي وتزوج عاري · ارى حولي ايادي لا تتحرك في غير خدمتي · اسمع حولي اصواتاً لا تردد غير كلمات الحب والمعروف والعطف والحنان · القس جبرائيل يغمرني باحسانه · والدي يدهشني بعطفه وحنانه · عارف يحزنني بمروءته وشهامته ووفائه · وولدي ولدي ! آه من نغمات صوته وازاهر ابتسامه وضياء نظراته · لولاها لكنت سعيدة · لسلمت نفسي الى الليل يحملني الى عالم النسيان يدفنني في قلب ظلماته · نعم نعم · بنوا لي هيكلاً من ازاهر السعادة فدخلته فاذا هو خربة تصفر فيها الرياح · آه ثم اواه · ما اجملك ، ايام الصبوة ! ايام السذاجة ، ما ابهاكِ ! يوم كنا نقطف زهرة الاقحوان فنعد بتلاتها موءمنين بما تقول واثقين بما تحكم كأنها صوت من السماء · واليوم اليوم ؟ ان اصوات السماء المتجسدة حباً واحساناً لتقع عَلَى آذان منا صماء وقلوب مستحجرة · ربي ما اجمل جسد الحب ، وما اقبح نفسه ! ما ابهجه في عينيَّ ، وما اكرهه في فوءادي ! ما اجمل الفضيلة بعيدة وما اقبحها قريبة ! تنادينا من العلاء فننصت اليها ونجيبها ونسعى اليها طاقتنا · ثم تلمسنا بيدها المحناة بعناء الجميل فننفر منها هاربين ·

وسمعت اذ ذاك بومة تنعق فاستنكرت صوتها ونهضت عن الكرسي

مذعورة · فجلست عَلَى الديوان قرب السرير تمسح العرق المتصبب من جبينها ووجنتيها وصدرها فعثرت بالذخيرة المعلقة في عنقها فجعلت تقبلها مناجية امها وذكرت الليلة التي حلمت ذاك الحلم فسمعت امها تقول لها — اخرجي من القاهرة

— خرجت من القاهرة التي فزت فيها وسقطت فيها · وها انا في محيط من السعادة اسمع اصوات الحياة — حياة الفن ، حياة الجهاد ، حياة المجد ، حياة الشقاء ، فأود ان البيها · امي ، امي ! انتِ الوحيدة التي لا يغير البعد ولا القرب حبها ولا الموت ولا الحياة · ليتك الان الى جانبي اشعر بلمس يدك واسمع صوت حنانك اللذيذ ·

وقفت امام الشباك كأنها تنادي امها · فسمعت زوجها يطرق الباب فلم تفتح · فظنها عارف نائمة وعاد الى غرفته · ولكن مريم حاولت ان تنام فحال الحر دون رغبتها فخرجت من غرفتها الى الفناء تمشي حافية عَلَى البلاط · فسرت في رجليها الى قلبها نفحات باردة انعشتها · ثم تحرك الليل فهب نسيمه فبرَّد جسمها المحترق وجفف العرق المتصبب منه ولامست نفحات السحر جفنيها فاخذها النعاس ·

دخلت غرفتها ونامت ساعة فايقظتها نوبة من السعال شديدة اقامتها فجأة من سريرها · فسمعها عارف تسعل فنهض من فراشه مسرعاً وجاء يحمل شمعة مضيئة · فتح الباب ودنا من مريم يسند رأسها وهي تسعل فأحس برعشة غريبة مضنكة اذ لامست يده شعرها المبلل بالعرق البارد · وجمد

الدم في عروقه حين رأى الدم في الطشت امامه · فمرّت في مخيلته كالبرق صورة عمه القسيس وسمع صدى لعنات رددها في قلبه

عادت مريم الى سريرها فجلس عارف عَلَى كرسي الى جانبها يربت يديها ويوءاسيها

— اتركني يا عارف · لا بأس عليَّ وحدي · رح نم يا اخي · رح نم · اعطني الابريق قبل ان تتركني · وملعقة من تلك القنينة · سلمت يداك · اتركني الان · واقفل الباب ·

— الفصل الرابع والعشرون —

كان القس جبرائيل منشغلاً بفحص اوراق له قديمة حينما دخل عليه القس بولص والقلق بادٍ في وجهه · فحياه يسأله عن حاله — ومالي اراك مضطرب البال ؟

— هل اخطأتُ في ما فعلت ؟

— لم افهم ما تريد ؟

— هل اخطأت في جهري ان مريم بنتي ؟

فعمد القس جبرائيل الى اوراقه يقلبها وهو يقول دون ان ينظر الى اخيه الراهب — وهل انت مرتاب بما تظنه حقاً ؟

ثم دفع اليه تلك الورقة التي لقيها عند حمامات طبريا لما كان هناك واحتفظ بها · فقرأ ما فيها القس بولص مدهوشاً وقد علم انها من اوراقه — من اوراقه ، وبخط يده

— فيها جواب عَلَى سوءالك ·

— نعم · نعم · وفيها ما هو أرسخ بنفسي من التعاليم الدينية والادبية · هذا يا قس جبرائيل من اوراقي · أنا كتبتها · وحق ما كتبت «لولاك ياربي لمن يعترف المجرم الاثيم » « الاعتراف مرهم النفس » حق هذا · حق ما كتبت · وبهذا ابشر · وبهذا انا عامل · ولكني احس من نفسي الان وهنا فاعذرني اذا لجأت اليك · العلم لا ينفع في الشدات نفع نفحة من نفس سامية أو شذرة عزآء وتشجيع من ذي خلق مجيد عظيم · فلا تضن عليَّ باليسير من كثيرك · اني متيقن يا قس جبرائيل ان ايامي ستكون كلها سودآء اذا قضيتها بعيداً من بنتي · واذا أقمت معها او قربها أكون عليها وعَلَى زوجها منشأ عار دائم وبلاء مستمر · انا معذب بين واجبين — واجب بشري وواجب الهي · بنتي احبها ولا اطيق وحياة الله فراقها · ولما جهرت بالحقيقة أمام عارف زلقني ببصره كأن يرميني بافظع الاثام · طعنني طعنة ادمت فوءادي كسرت نفسي · فعلمت آسفاً انه من المستحيل ان ارى ابنتي بعد ان تنتقل الى بيته

— ستراها هنا · ستجيء مريم من حين الى حين في فصل الشتآء لتقضي عندنا بضعة اسابيع ·

— ولكنها لا تقيم وزوجها بلاي

— كلام النساء · فانها لتنساك حين تشفى من مرضها وتنساني · فتنصرف عنك وعني الى زوجها وولدها ·

— وهل تظنها تشفى من ذا المرض · اني لاخشى عليها منه · ولا احب ان افارقها ما زالت مريضة · أسفت لجهري المبتسر · ليتني لم افعل

— ان ما فعلت حق · وقد تكون واهماً في ما تظنه بعارف · فهو كريم الاخلاق شريف النفس ·

— لا انكر ذلك · ولكنه لا يطيق ان يرى في بيته الراهب الذي هو والد زوجته · ولقد طالعت ذلك في عينيه · ولا لوم عليه · علَى اني اظن انه مساق الى مـا فعل بما تقول انت يا ابتي · لا تسىء فهمي · اظنه وزوجته ينجذبان اليك مطيعان لك ، عاملان رغم ارادتهما بمشيئتك · ولا اظنهما يعيشان سعيدين · اذا شفيت البنت من مرضها ·

— يا قس بولص · انت اطول مني باعاً في العلم والفلسفة والاداب · ولكن نفسي ترى ما لا يراه علمك · انما رجل الله يا قس بولص من عمل بحق الله · واقتبل شاكراً مستسلماً كل نتائجه وعواقبه · وحق الله ما تم عندنا البارح · وحق الله ان نعيش صادقين مخلصين وان عشنا تعيسين بائسين

— وانا اليوم كسير القلب · كسير النفس · بل انا اليوم اشد الناس بؤساً وبلاء · بنتي · بنتي · حرمت رؤيتها عشرين سنة ولم انسها يوماً واحداً · واليوم وقد حقق الله بغيتي القصوى يفسدها عليَّ عبده · أيمنحني

الله نعمة فيحرمنيها الانسان ؟ لا وحياة الله لا · سأقيم قربها ولو متنكراً · سأزورها ولو شحاذاً

— لو كنت خامل الذكر لاستطعت ذلك · ولكنك معروف مشهور حيث سرت وحيث اقمت · والجرائد اليوم تلهج بذكرك · وا اسفاه · اقرأ ما كتبته عن غصن البان واصحابها الرهابين · قد وصلتني هذه الجرائد اليوم

طالع القس بولص مقالة في احداها ونهض يلطم خديه ومنكبيه ·

« قد فتن القس بولص عمون الواعظ الشهير بغصن البان الراقصة وفرَّ هارباً واياها » هذه الكلمات في الجريدة سملت عينيه ومزقت احشاءه — رحماك ربي ! رحماك ربي ! ان بلايا ايوب كلها لو بليت بها لاخف عليَّ من هذه البلية · ساطلعهم علَى الحقيقة · ساطلعهم علَى الحقيقة · نعم نعم من اسر سريرة ألبسه الله رداءها · ليعلم العالم اذا بدخيلتي · بسري · بذنبي بعاري ·

وعمد الى القلم والورق يكتب كتاباً عمومياً الى جرائد القاهرة يقول فيه ان غصن البان بل مريم الناصرية هي ابنته من لحمه ودمه · وشخص تلك الساعة الى طبريا فسلم الكتاب الى مدير البريد هناك فنفث بعض كربته · وعاد الى البيت في الغوير ماشياً يجتاز في طريق جميلة تطوق الربى الى جانب البحيرة متغلغلة في البسـاتين منسابة في الحقول · فدخل المجدل والشمس تميل الى المغيب وجلس اذ وصل الى تلحوم يستريح · فشاهد في خرائب تلك البلد ما رسمته الشمس في اطلالهـا من الاظلال والأضواء

والسعة · وليس ما يوجب عليك ان تطلع الناس عَلَى دخيلة امرك

فقال القسيس والنار تحتدم في ناظريه — ليس ما يوجب عليَّ الصدق والاخلاص ؟ انت شاب يا ابني تبتسم للحياة فتبسم الحياة لك · ولا تدرك ما في اعماقها من البؤس والشقاء · اطلعتك عَلَى سري فازدريتني ولا حق عليك · ولست انا لصاً ولست نبياً · فاسلبك راحتك وانذرك بما قد يكون من امرك · كشفت لك سري لاني لا اريد ان اخدعك فتخدع نفسك وتخدع زوجتك · فهل تنكرني الان فتخدع الناس وتخدع الله ؟ سأبقى بعيداً منك واذا انكرتني انا عمك والد امرأتك فلا احرك ساكناً في تكذيبك · اعمل ما تشاء وما تطمئن له نفسك ونفس زوجتك ·

— لا تطمئن نفسي يا ابي الا بقربك مني · والدي العزيز لا تهجرني بعد ان لقيتني · هذه ذخيرة امي عَلَى صدري استحلفك بها ان تسافر وايانا وتقيم عندنا · واذا كان عارف لا يريد ذلك فانا افضل الاقامة واياك في هذه البرية · فاموت بين يديك سعيدة · نعم · نعم · افضل ان اموت بقربك عَلَى ان اعيش بعيداً منك ·

وجآء اذ ذاك القس جبرائيل يقول — وهل وطنتم النفس عَلَى السفر ؟

فقال عارف نعم وقالت مريم — لا

فاسرَّ القس جبرائيل الى القس بولص كلمة ثم قال — سافري يا بنتي مع زوجك وولدك · وبعد يومين ازورك والقس بولص في بيتك الجديد واذا اصطفتم في لبنان نرافقكم ونقيم واياكم هناك ·

— اصحيح ما تقول ؟ أتسافر وايانا الى لبنان يا ابي · اذاً لنسافر من هنا

— ذلك مستحيل · ينبغي لي ان اعود اليوم الى حيفا لقضآء بعض حاجات وسنسافر اذا شئت من هناك بحراً

— ليكن ذلك يا بنتي · سافري اليوم وزوجك

— وهل تسافر وايانا الى لبنان ·

— نعم · نعم ·

— وبعد يومين اشاهدك بحيفا عندنا ؟ أتزورنا بعد يومين ؟

— نعم · نعم ·

— ونسافر يومئذٍ الى لبنان ·

— نسافر الى لبنان

وبينا كان القس جبرائيل يتناول العشآء وضيفه ليلة ذلك النهار خاطبه قائلاً — ما ضرَّك لو اقمت عند بنتك ؟

— لا يضر ذلك بي بل يضر بها وبزوجها

— وهل انت متيقن ؟ هل انت موءكد ان عملك هذا انما هو اكراماً لها فقط · لا تجبني عَلَى هذا السوءال · أجب نفسك · أجب ربك ·

— كل كلمة من كلماتك يا قس جبرائيل تفتح باباً من الحق للنفس وباباً من العذاب ·

— والعذاب في سبيل الحق عذب · وانه لمحتم علينا قبولُ ما جرَّم

السالف من اعمالنا وذنوبنا · القضاء لا يرد · والله سبحانه لا تُرد احكامه · وان الحقيقة التي تطهر النفس لفوق السعادة · اي نعم · وما شأن السعادة يا ترى اذا قابلناها بفضائل النفس السامية · بالصدق والاخلاص والبطولة والصبر والاستشهاد في سبيل الحق · فالحق يعلو ولا يُعلى عليه · ما كان مكتوماً سيعلن وما كان مختبئاً سيظهر · لتكمل مشيئة الله ·

فطأطأ القس بولس رأسه مردداً — لتكمل مشيئة الله ·

وفي صباح اليوم الثاني نهض باكراً يودع القس جبرائيل ·

— الى اين يا ابتي ؟

— الى حيفا ·

فاحنى القس جبرائيل رأسه قائلاً — رافقتك السلامة ·

— الفصل الخامس والعشرون —

وقفت مريم في شرفة البيت بحيفا تنظر تارة الى البحر وتارة الى جبل الكرمل ثم تدور ببصرها وبقلبها الى فريد الواقف قربها يسائلها عن البواخر في المرفأ · البحر فالسفر فالحرية فالجهاد فالاقبال فالمجد · لقد لاحت هذه الكلمات في جوانب نفسها كوميض البرق فانارت هنيهة ظلامها واستفزت الخامد في منازعها ·

ونظرت الى الدير عَلَى قمة الجبل المقدس فاخذتها رعدة دبت الى صدرها فاثارت كوامن غمها · ذكرت ايامها في الدير بالناصرة فصعدت الزفرات · وذكرت يوم سافرت من هذا الشاطىء ومدام لامار فاعترتها هزة ايقظت فيها رواقد الرغبات والهمات ·

وهبَّ هواء البحر فوق البساتين يحمل اليها شذا الورد والفل والياسمين فانعش فؤادها واحيا المائت من آمالها · فجثت امام ولدها تضمه الى صدرها وتقول — شفيت يا حياتي · شفيت يا عمري · وغداً نسافر · غداً · غداً ·

وكان زوجها وهو ينتظر قدوم الطبيب جالساً عَلَى الديوان في فناء الدار منقبض النفس مستسلماً الى الافكار والهواجس — اذا كانت تفضل ان تقيم ووالدها لِمَ قبلت بعقد الزواج يا ترى ؟ ولكنها معذورة · المرض يذهب بمحاسن الخَلق والخلق · وهذا الراهب ابوها · راهب مجنون · سيجيء غداً بيتي يقيم فيه وابنته · عَلَى رأسي الابنة · اما الاب ؟ فلا اعرفه ولا احب ان اعرفه · لا والله · حسبي ما اقتبلت وما قاسيت · امي ابي اهلي الناس كلهم ينظرون اليَّ شذراً ويضحكون مني · واذا علموا بامر الراهب يسلقونني بألسنتهم تأكلني نار الشماتة والسخرية · لا والله لا · اذا جاء هذا البيت يجد الباب مقفلاً دونه · ليرجع الى ديره يستر فيه عاره ·

جاء الطبيب يلهث وينفخ مستعيذاً بالله من الحر والغبار فجلس عَلَى الديوان يستريح ونزع طربوشه يمسح العرق المتصبب من جبينه · وبعد ان

شرب كأس الشربات الذي قدم عَلَى صينية من الفضة دخل الى غرفة مريم ففحصها فحصاً بسيطاً جس نبضها · واخذ حرارتها · والقى رأسه عَلَى صدرها ثم قال — ظننت الامر خطراً يا خواجه عارف فجئت كما ترى مسرعاً · فلا شيء والحمد لله يزعج البال · التهاب خفيف في شعب الرئة ودرجة واحدة من الحمى ·

وكتب الوصفة وسلمها الى الخادم · وجلس عَلَى الديوان يدخن بالاركيلة التي اعدت له ويشرب القهوة وبعد ان هنأ عارفاً وطمأنه وباحثه في القديم والحديث من اخبار الدولة والدول ودع وانصرف

ولكن عارفاً ظل مشككاً · وبعث يستدعي الطبيب الافرنجي الشهير ليتحقق ما قاله الطبيب السوري · فعاد الخادم يقول — الحكيم يكون هنا الساعة الثامنة مساء · والموعد في لغة افرنج الشرق وقت غير محدود · ففي الساعة التاسعة سمع ضجيج سيارة في البستان · سيارة الحكيم ! دخل حضرته والقبعة في يده · فسلم باللغة العربية التي يحسن شيئاً منها وراح تواً يفحص المريضة فحصاً دقيقاً · وضع قلم الحرارة في فمها واخذ نبضها يجسه والساعة في يده الاخرى · ثم فحص لسانها وقبض عَلَى لحيته واجماً · ثم استخرج من جيبه آلة فوضعها عَلَى صدرها وظهرها يستطلع خبر رئتيها فهز رأسه مرتاباً · ثم ضرب بقضيب من النحاس عظم ساقها وقطب جفنيه · ثم سألها ان تمد يدها وتبسط انامها فشاهد فيها اهتزازاً قليلاً فضجرت مريم وتأففت · ولم تجب الطبيب الا عَلَى بعض سوءالاته المتعددة ·

خرج حضرته وعارف الى فنآء الدار يحدثه بامرها وسأله سوءالين امتقع لهما وجهه ولم يدر ما يقول جواباً ·

— مرض الست عَلَى ما يظهر مزدوج · يلزمها راحة بال وهواء نقي وغذاء · لتفتح شبابيك غرفتها ليل نهار · لتلازم سريرها بضعة ايام · وبعدئذ انقلها الى الجبال · جبال لبنان حيث يكثر الصنوبر · وسأعودها بعد يومين

ودفع الى عارف الوصفات التي خطتها انامله واملاها عليه علمه الغزير · اربع وصفات لا غير ·

— لتشرب من هذا قبل الاكل ومن هذا بعده · ولتدهن من هذا · ولتتنشق من هذا ·

— وهل من خطر عَلَى حياتها ؟

فبزم الحكيم شفتيه وذوى ما بين عينيه وامال برأسه مفكراً ثم قال — في كل مرض خطر عَلَى الحياة وامل بها · والامل بشفآء الست اكبر من الخطر · وامر عند الوداع ان تفرد اواني الاكل والشرب عن اوانيها · فعاد عارف يهز رأسه ويقول — هذا ما توقعت · هذا ما خشيت · وخطر في باله ان يسأل الحكيم سوءالاً آخر فلم يلحقه في الباب · كرَّ دولاب السيارة وراحت تهدر خارج البستان ·

وفي اليوم الثاني احست مريم بتحسين في حالها ولم تفتح واحدة من القناني التي وصفها النطاسي الافرنجي الشهير · ونزل عارف الى مكتبه يتفقد اشغاله · فسمع من اقوال الناس والاشاعات عن امرأته وابيها الراهب ما

اثار شجونه وهاج كوامن غيظه · وعزم ان ينقل مريم الى لبنان ريثما تنسى اسرها ·

وبينا كان عارف في مكتبه جآء القس بولص وكان قد وصل ذاك اليوم ليتفقد ابنته · فوقف في باب البيت بحيفا كما وقف في ذاك الباب في شارع قصر النيل ·

— مستحيل يا محترم · الخواجا في المكتب · والست مريضة والطبيب لا يوءذن لاحد بمقابلتها ·

— هذا قانون للغربآء ·

— لكن الناس يا محترم ·

— لا بدّ من ان ادخل ·

وهمّ القس بولص بالدخول فاوقفه الخادم قائلاً — لا لوم عَلَى خادم يعمل باوامر سيده · ارجوك ان تخرج ·

فصاح القس بولص به — ياو ياو ! ! سيدتك بنتي · بنتي · ألا يوءذن لوالد ان يرى ابنته ?

— لو جآء السلطان اليوم ما اذنت له بالدخول ·

فطأطأ القس بولص رأسه وانثنى راجعاً فجلس تحت نخلة في البستان ينظر الى البيت والنفس منه حزينة حتى الموت

وكانت لطيفة ربيبة فريد قد سمعت ما دار من الحديث بين الخادم والقسيس فجاءت مسرعة تخبر سيدتها · فاستشاطت مريم غيظاً وراحت

تنادي اباها فالتقت بالخادم في الباب ·

— ومن اعطاك هذه الاوامر ?

— الخواجا عارف يا ستي

— دهنك داهية انت والخواجا عارف ·

وخرجت الى البستان تنادي — ابي ابي ! فسارع القسيس اليها مجيباً وجلس واياها عَلَى مجلس في الجنينة تحت النخيل

— ازورك هنا يا بنتي · لا ادخل البيت ·

— بلى · بلى · دخيلك ابي

— وغداً ازورك يا بنتي · انا مقيم في النزل ··· وساظل في البلد الى ان تشفي — وسازورك هنا في البستان كل يوم ·

— ولكن الطبيب اشار بالسفر الى لبنان

— فسافر واياكِ كما وعدت ·

وفي تلك الآونة جآء عارف عائداً من مكتبه فسلم عَلَى القس بولص ولعنه في قلبه · فقالت مريم مخاطبة زوجها — أفلا تريد يا عارف ان يزورني ابي امرك يا سيدي مطاع · امرك مطاع ·

ثم ودّعت اباها قائلة — سازورك انا في النزل يا ابي · ولا اكلفك الى ما فيه اهانتك ·

ودخلت وزوجها الى البيت تصر باسنانها وتحاول كظم غيظها · فلم تنم تلك الليلة الا قليلاً ·

وفي اليوم الثاني اشتدت وطات الحمى عليها . واستمرَّت تصعد الحرارة حتى درجة الخطر . فبعثت تستدعي اباها اليها فجآء مسرعاً . دخل الغرفة فوجد عارفاً جالساً الى جانب السرير منكساً رأسه وسمع مريم تهذي . فهتفت اذ رأته -- ابي . ابي . اقم عندي . قربي . لا تفارقني . سأموت . سأموت . ولكني اموت سعيدة وأنت قربي . الى جانبي . لقد انشرح صدري الان . قد زالت آلامي . شفيت . شفيت . وغداً نسافر الى لبنان . غداً صباحاً . انا واياك وفريد . نقيم في ظلال الصنوبر . سارقص في ظلال الصنوبر . اتلو عليك قصيدة الابنة الحزينة البائسة . الله ما اجمل انغام الكمنجة . الكمنجة وحدها . وحدها . انغامها تذيب قلبي . تطرب نفسي . سكرة الحياة ما احبها . سكرة الموت ما ابدعها — ايها الشاعر نفسي الليلة حزينة . حزينة حتى الموت -- ساموت واسافر الى باريس . الى باريس . الله ما اجملك يا باريس . تموج شوارعك بالناس . بالازيآء . بالابهة . بالجمال . بالفنون . ضجيج شوارعك وقهاويك مثل الاغاريد في اذني . العربات والسيارات والجماهير والبوليس في وسط الشارع رداؤه على كتفه وصولجانه الابيض في يده واقف . ما ألطف بوليسك يا باريس وما اعظم سطوته . وانوارك والناس في بهائها رائحين جائين كلٌّ الى جنب من يحبه ويهواه . وها قد جآء المعّاز بقطيعه (١) ما ألطف قصب المعّاز وطنين اجراس

(١) في بعض انحآء باريس يطوف المعّاز بقيطعه صباحاً وهو يعزف عَلَى الناي فيبيع الحليب من الضرع .

القطيع . جآء المعّاز -- حليب . حليب . هاتي يا بنت دلوك . قصب الراعي في اسواق باريس . اسمعوا قصب الراعي . وغداً نسمعه في لبنان . غداً . غداً اموت . آه اواه . غداً اموت ولا اسمع صوت اجراس القطيع . عارف استغفرك هات يدك . سامحني . انا مائتة . انا مائتة . خذ يد ابي صافحه واستغفره . استغفره يا عارف . الله ما احلى الصفآء وما اجمل القلوب الصافية . اسمعوا صوت القصب . اسمعوا صوت اجراس القطيع . سأرقص لكم عَلَى انغامها . سأرقص لكم رقصة الابنة الحزينة البائسة

وهمت ان تنهض من سريرها فلم تستطع . هاج الهذيان سعالها . وانهكت الحمى قواها .

وجآء يومئذٍ النطاسي الافرنجي يعودها فوجدها في تلك الحال فوصف لها الحمامات الباردة .

ثم جآء الطبيب السوري فوصف الكينا وقال مستعيذاً بالله — الحمامات الباردة تجهز عليها . تجهز عليها . هي نوبة حمى يا خواجا عارف وستزول غداً او بعد غدٍ ان شاء الله .

— الفصل السادس والعشرون —

وفي لبنان دواء للنفوس شافٍ · ودواء للابدان · على ربوة بنية الاديم · زاهرة الجوانب · بين قمم تحتها خضراء · يعطر الصنوبر هواءها · وقمم فوقها بيضاء ثلجها لا يزول · في بيت هنالك تحيط الكروم به والغابات · ويشاهد من احدى شرفتيه الوادي ومن الاخرى البحر · اقامت مريم وابنها وابوها ثلاثة اشهر مباركة · زاهرة ايامها · صافية لياليها ·

وكلما وقفت في الشرفة تنظر الى البحر بعيداً · وقد بدا في الافق الغربي كسجف ازرق غامق متدلٍ من السماء اللازوردية · والبواخر والتوارب كالطيور رسمت عليه والسوسن · كانت تجول المطامع والنزعات في صدرها جولات فتسمعها صوتاً يردد هاتفاً — البحر · فالسفر · فالحرية · فالجهاد · فالاقبال · فالمجد !

وكلما وقفت في الشرفة الاخرى تنظر الى الوادي العميق القرار · المظلم الجوانب والاسرار · الكثير الاكناف والاخطار · كان يخيل اليها ان بينها وبين تلك المطامع والرغبات وهدة مثل هذه الوهدة عظيمة مخيفة · فيستحوذ الكرب عليها ·

ولكن صوت القصب هنالك · على تلك الربوة في الجانب الاخر من الوادي صوت مؤنس سماوي الهي · ينعش قلبها · ويطرب نفسها · فيبعث فيها كامن عزمها · ويحيي الجميل من احلامها · صوت القصب في المساء وقد سكن الليل وصفا اديمه · وتلألأت الكواكب في قبة عرشه الفخم

المهيب · انما هو حنين الجبال الى الجبال · والعشاق فيها الى العشاق · بل هو حنين القلوب في سجونها · حنين صغار الطير في وكناتها · حنين النفس الى سرب من النفوس مثلها تنضم اليه فتبسط جناحيها ناشطة جذلة راغبة تقاسم اخواتها السراء في الجهاد والضراء · صوت القصب يناديها · وبينها وبينه وهدة عميقة مخيفة مظلمة · صوت القصب في ذاك الجبل بعيداً · صوت القصب وراء البحار في اسواق باريس ·

وفي ذات ليلة من ليالي الخريف بينا كانت وابوها ينصتان الى حنينه المحزن المطرب المهيج · والقمر وقد احيطت به الغيوم البيضاء يفرش ظلالها للاحلام وارباب الاحلام على المروج وبين الصخور وحول الينابيع نظرت مريم الى ابيها وخاطبته قائلة —

— والان وقد شفيت يا ابي عليَّ ان اعود الى بيتي · الى بيت نفسي · الى بيت قلبي · الى بيت آمالي واميالي · ولكن عارفاً يجيئنا الاسبوع القادم ليعيدني الى بيته · هيهات · هيهات ! ابي · حبيبي · وليَّ قلبي · لقد شفيت بفضل الله وفضل هذه الجبال المقدسة فسأكشف الستار اذاً عن مكنونات صدري · ابي · ان في قلبي ما لا استطيع ان اشارك به انساناً · ولا يمكنني ان احب رجلاً الا اذا محضته حبي · وقد كنت اظن ان القس جبرائيل يزدلف اليَّ ويخادعني ولكنه علمني ألاَّ اخادع ولا احابي · حقي ان اعمل بما يوحيه اليَّ ضميري · بما يطالبني به فؤادي · بما يفرضه عليَّ محض حبي · هذا حق · ولقد طالما قال القس جبرائيل — انما الحق فوق السعادة · فاذا

اقمت وزوجي وفي قلبي ما لا استطيع ان اشاركه به · في قلبي ما يمسكه الحب عنه · اكون مخادعة · خائنة · ناهيك ببؤسي وغمي · وببؤسه من جراء ذلك وغمه · فلا سعادة في مثل ذا العمل ولا حق · احلف بالله يا ابي اني اذا اقمت واياه لا يقيم واياه قلبي · ولا جزء صغير منه · وما الفرق بين البغي والزوجة التي تهب زوجها جسدها وتمسك عنه قلبها بل هناك فرق عظيم يظهر في الخداع والخيانة والنفاق · وعندي ان الامرأة التي تقيم وزوجها على هذه الحال انما هي اشر البواغي واخبثهن · · · · لقد تمم القس جبرائيل قصده بي · ليهنأ بذلك · والان قد ابعدني الله منه ابوح لك بسري بل بسبب حزني وغمي لما كنت في طبريا · فقد كنت اشعر وانا في ظل القس جبرائيل انني آلة صماء يعالجني كيف شاء · لا رغبة لي ولا رأي · ولا عزم · ولا ارادة · كنت اشعر انني عائشة مائتة · أفرغت نفسي من فضائل الحياة كلها فاملأها نفوذه عليّ كرباً وحزناً وغماً · واما الان فانت رفيقي · انت ابي · انت ولي قلبي · وانت ايضاً معذب في شؤونك · تجاذبك الحرية ويجاذبك الاسر · اذا اقمت في هذه البلاد فاما ان تنبذ الثوب واما ان تعيش منبوذاً · وفي كل حال تعيش مغموماً محزوناً مدحوراً مذموماً · وهب انك اقمت في الرهبانية مكرماً معززاً فهل تسعد ابي في بعدك مني ? انا وان كنت في سابع سموات الاقبال والمجد لا اسعد ولا انعم في بعدي منك · ابي ذنوبنا تعلمنا الحق · التجارب تأدبنا · وانا بفضلها الان اميرة نفسي · ارادتي في يدي · وقلبي بين جنبي مصان عن الابتذال · حرة · غير مقيدة ·

ناشطة · عازمة · طامحة · وساعود منتضية حسام النفس الى مضمار الحياة · وانت ابي الى جانبي · وفريد على صدري · الحرية يا ابي مقدسة · حرية المرأة · وحرية الولد · وحرية الرجل · حرية فريد وحريتك وحريتي · حرية فريد في ظل امه · وحريتك في ظل علمك ووجدانك · وحريتي انا في ظل ابي · نعم · نعم · سيظهر فريد حياتي · وسيظهر فني وسأسعى لك وله ولنفسي · · · · صوت القصب يناديني ويناديك · ينادينا كلنا · صوت القصب هناك · هنالك · في ذاك الجبل · بل وراء قامات البحار · قد كانت نفسي كالزيز محبوسة في الشرنقة فاصبحت الان فراشة حرة · ونفسك ابي كذلك · نفسك كذلك · سنلبي اذاً صوت القصب · صوت الحياة · صوت الحرية · صوت الحق · صوت القصب يناديني ويناديك ابي · صوت القصب ينادينا كلنا ·

فقال ابوها — كنت اهدي الناس يا بنتي وانت اليوم تهديني · بارك الله فيك · بارك الله فيك ·

وفي اليوم التالي كتبت مريم كتاباً الى الخواجا عارف مبارك بحيفا تكشف له سريرتها وتعلمه بقصدها · وكتاباً آخر الى القس جبرائيل مبارك تشكر له جميل صنعه واحسانه وتخبره انها متبعة في ما هي فاعلة الحق الذي علمها اياه · الحق لا تعلو حتى السعادة عليه ·

وسافرت وابوها وابنها من سوريا يتبعون نور الشمس

(تمت)

ملوك اخوان

—(معملنا بفرنسا)—

انا نصنع في معملنا بفرنسا اجمل واحدث ما يستنبط فيها من كالوني وفلورنتين وجميع انواع الخروجة شغل اليد

—(معملنا في فنيسيا)—

اما معملنا في فنيسيا فنعمل فيه ادق وافخر البضائع من الفيله والفنيس والمطرزات وجميع ما يصدر في ايطاليا من خرج او تطريز لاجل المفروشات

—(معملنا في مديرا)—

وقد اشتهر معملنا في مديرا بجودة المطرزات المديرا التي نشتغلها به . وكلها نقشات من جميع الاشكال .

ولا شك ان اسعارنا تناسب عملاءنا اكثر من اسعار سوانا لان بضائعنا تباع رأساً من محلاتنا للتجار معاملينا وبذلك توفر الاضافات عَلَى الاسعار التي يتقاضاها غيرنا .

محلنا الرئيسي في نيويورك ، كما ترى في العنوان ادناه ، وله فرع واحد في كندا عنوانه

MALLOUK BROTHERS
47-49 WEST STREET
NEW YORK

الزيتون في كايفورنيا

ذوقوا واحكموا

ليس من ينكر كثرة الصعوبات التي نصادفها من جراء الحرب الاوربية بانقطاع المواد الغذائية السورية عن هذه البلاد الاميركية . ولما كنا قد اعتدنا في السابق ان نحصل عَلَى كل اصناف السمانة العربية من سوريا لم نعد نبالي بالاهتمام لايجادها هنا مع ما كنا نتحمله من الصعوبات والمصارفات في مسألة الشحن . عَلَى انه وقد حالت الظروف في هذه الايام دون الحصول عَلَى متمنياتنا وسدَّت الطرق من كل جانب في وجوهنا فتوهم ابناء الوطن ان لا لذة تعادل لذة الواردات الوطنية وجدنا غب الامتحانات والاهتمامات التي نجريها دائماً وحباً براحة وخدمة عملائنا الكرام طريقاً لارضائهم فقد ذهب احدنا الى كاليفورنيا حيث اهتمَّ بضمانة كروم الزيتون هناك وصرنا نستورده الى محلنا الخاص فنخرج من انواعه زيتوناً اسود ومرصوصاً بزعتر ومن كان في شك فما عليه الا التجربة كما وانه عندنا جميع انواع السمانة السورية وسائر المشروبات الروحية وهذا عنواننا .

تامر كنعان معلوف وشركاه

T. K. MALOUF & Co.
79 Washington St. New York

صيدلية شركة فلسطين

سنت		
١٥	جربوا	الشربة العجيبة للرجال والنساء والاطفال اشتهرت بلذتها وفعلها الغريب
٢٥	«	حبوب الدكتور فنديك مسهلة ملينة تزيل وجع الرأس والدوخة
٥٠٠	«	حبوب خصوصية لتقوية الاجسام الضعيفة
٢٠٠	«	الشربة المندية للدودة الوحيدة مكفولة
٢٥	«	البودرا التي تزيل الشعر من الجسم والمكفولة من كل ضرر
٥٠	«	صبغة الشعر الخالية من حجر جهنم والمكفولة انها تعطي الالوان المطلوبة من اي لون شئت
٢٥	«	البودرا الشهيرة الخالية من كل غش والتي تستعمل للجنسين « الجنس اللطيف والجنس النشيط » وهي دواء شافٍ لعرق الرجلين

لدينا سائر اصناف الروائح الشهيرة على تعدادها

لا تتعجبوا بالختام اذا قلنا اكتشفنا دواءً جديداً لنمو الشعر في الراس وتقويته ولبس على الذين يريدون انماء شعرهم الا ان يجربوا دواءنا هذا العجيب فيحققوا صدق ما نقول والتجربة خير برهان .

عندنا دواء مشهور يزيل النمش والكلف من الوجه .

ومن المرطبات لاجل الصيف جميع المشروبات مع ايس كريم اميركاني وايس كريم سوري مع الفستق .

مدير الشركة

فلاديمير حلبي

PALESTINE DRUG CO.

28 RECTOR STREET NEW YORK

TELEPHONE { 5116 / 4994 / 3090 } RECTOR

مركز البوسطه

حديث وجيز

أأنت من مدخني السيكارات ؟

اذا أجبت « بنعم » فهاك سؤالاً آخر .

ما هو النوع الذي تدخنه ؟ — وقبل ان نسمع جوابك نسألك ان تسمح لنا ان نقول

اذا كنت تدخن السيكارات البرصونية فلا حاجة لشرحنا لك عنها ، وان كنت تدخن غيرها فجربها وقابل بينها وبين سواها

السيكارات البرصونية مصنوعة من التبغ التركي الخالي من الغش

انها من اقدم واشهر انواع السيكارات المعروفة ، ومدخنوها يشهدون لها بجودة وسلاسة طعم دخانها .

وانك تحصل عليها متى شئت فاطلبها تجدها لديك حالاً .

A. N Barson & Co.

40 West Street New York

بدران اخوان

والهجوم الروسي

ان روسيا في هذه الحرب العظمى قد برهنت عَلَى قوة واقتدار كانا كامنين في جسمها الواسع وشعبها الامين · ولا غرو ان امة أخرجت من احشائها رجالاً عظاماً منهم القواد سوفوروف وكوتوزوف ومنشيكوف وسكوبيليف والغراندوق نقولا وبروسيلوف والفلاسفة تولستوي وسولوفيوف وباكونين والكتبة المتفننين تورغينيف ودوستويفسكي وتشيخوف وغوغل والمصلحين العظام بطرس الاكبر وسبيرانسكي وكاترينا الثانية وغيرهم من المشاهير لهي امة جديرة بان تبدو منها القوة الطاحنة

ونحن قد اظهرنا في عالم التجارة من الثبات والقوة ما جعلنا ان ندحر اعظم الصعوبات · وبذلك قد برهنا عَلَى اقتدارنا التجاري كما برهنت روسيا عَلَى اقتدارها الحربي · ونحن مستعدون ان نلبي طلب كل عميل ونرضيه كما ان روسيا مستعدة ان تكتسح بلاد اعداءها ولو بغير رضى · اما بضائعنا المذخورة فهي من قمصان النوم والانفلب شميز والكورست كفر تطريز اليد والوست والكمونا عَلَى اختلاف انواعها والملبوسات النسائية كافة

BADRAN BROS.

87 Greenwich Street New York

الى تجار اميركا الجنوبية

— محل ميخائيل عريضه في نيويورك —

قد وسع دائرة اشغاله المعروفة واصبح يتعاطى تصدير البضائع الاميركية من جميع اصنافها الى سائر الانحاء

وهو مستعد

أن يقوم بخدمة كل المحال التجارية السورية في اميركا الجنوبية والوسطى وجزائرها استعداداً يرضي اصحاب البيوت الكبيرة والصغيرة التجارية

مقدرة هذا المحل المالية ،

وخبرته بالسوق الحالية ،

ومعرفته الاصناف المرغوبة ،

وتسوقه البضائع من معاملها رأساً ،

جعلته ان يحوز ثقة كثير من المحال التجارية الكبرى في اميركا الجنوبية في وقت قصير

فاكتب اليه

مستعلماً — أو مستشيراً — أو طالباً — أو مجرباً ·

ولك الخيار بعد ذلك ان تعامله او تعامل سواه

MICHAEL N. ARIDA

118 W. 22nd Street New York

محل حداد وعطيه

اذا كنت بحاجة الى ورق للف او خيطان او علب كرتون او اكياس او اي جنس كان من الورق وما يصنع منه · او اذا كنت بحاجة الى ورق مكاتيب ومغلفات ودفاتر وكل لزوم المحلات التجارية خابرنا اولاً ونحن نرضيك بالاسعار والمعاملة والاجناس الجيدة · كل هذه الاصناف موجودة عندنا بكميات كبيرة دائماً ومن كل القياسات ·

كذا لك نعلن الذين خارج الولايات المتحدة اننا نشحن الورق الى اي جهة كانت بكميات كبيرة او صغيرة وخصوصاً الى اميركا الوسطى والجنوبية ومصر · اطلبوا الاسعار مع كافة التعليمات ·

HADDAD & ATEYEH

84-86 Washington St. New York City

— اعلان مفيد —

السيدة الحاذقة ملكه نفش هي قابلة رسمية حائزة عَلَى الشهادة من حكومة نيويورك في فن التوليد · وقد مارست عملها بنجاح مدة سنوات طويلة اكتسبت بها اقبال الجمهور ورضاهم ·

وهي تنشر هذا الاعلان لتعلم الجمهور انها مستعدة لتلبية كل سيدة ليست قادرة عَلَى الدفع · وهذا عنوانها ·

—(ملكه نفش)—

98 Court St. Brooklyn, N. Y.

الفنون

مجلة ادبية تصدر مرة في كل شهر

رئيس تحريرها — نسيب عريضه

مدير اعمالها — راغب متراج

قيمة الاشتراك = خمسة ريالات اميركية لسنة · وثلاثة ريالات عن نصف سنة · وريال ونصف عن ثلاثة أشهر · ونصف ريال عن شهر واحد · والدفع سلفاً ·

AL-FUNOON

72 TRINITY PLACE

NEW YORK

— فهرس المجلد الاول من السنة الثانية —

فهرس المجلد الثاني

من السنة الثانية

22
3
V.2

محلنا هو

معرض السجاد العجمي والتركي الاصليين وطريقتنا في المعاملة معروفة عند اصدقائنا التجار في السجاد · اما المقدرة فللناس ان يحكموا فيها · وكل ما نقوله اننا نرضي وقادرين عَلَى مرضاة المستقيمين والمجتهدين

—(نعمه تادرس)—

N. TADROSS & CO.

225 Fifth Avenue, **New York, N. Y.**

Telephone 8885 Madison Square.

22
3
V.2 N

AL-FUNOON

AN ARABIC REVIEW OF LITERATURE AND ARTS

Published Monthly by

Al-Funoon Publishing Co.

72 Trinity Place

New York

ANNUAL SUBSCRIPTION $5.00

MAY 1917

VOL. II **NO. 12**

"Entered as second class - matter June 16, 1916, at the Post Office at New York, New York, under the act of March 3, 1879"